# حجـة الإسـلام

# حجة الإسلام

تأليف

**الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفى ١٢٩٧هـ**
**رئيس الطائفة المؤسسة للجامعة الإسلامية دارالعلوم / ديوبند**

تعريب

**محمد ساجد القاسمي**
أستاذ الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند

**أكاديمية شيخ الهند**

سلسلة مطبوعات الأكاديمية ٣٣

الطبعة الثانية

ربيع الأول ١٤٤٢هـ / أكتوبر ٢٠٢٠م

أكاديمية شيخ الهند

الجامعة الإسلامية دارالعلوم / ديوبند ، الهند

الرمز البريدي : ٢٤٧٥٥٤ – الهاتف ٢٢٢٤٢٩-٠١٣٣٦-٠٠٩١

SHAIKHUL HIND ACADEMY

DARUL ULOOM, DEOBAND-247554 (INDIA)

Ph: 0091-1336-222429

# تقـديم

## بقلم: فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن رحمه الله
## رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند بالهند

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تَبِعَهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فيُسْعِدنا جدًّا أن نُقَدِّم إلى قُرَّاء العربيّة كتابًا قيّمًا بموادِّه لطيفًا بطرحه وأسلوبه، منقولاً من الأردية إلى العربية، لصاحبه **الإمام محمد قاسم النانوتوي** رحمه الله (١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م = ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) رئيس الطائفة المؤَسِّسة لجامعة دارالعلوم/ ديوبند بالهند، بعنوانه الأصليّ الأرديّ: «**حجّة الإسلام**».

وقد كان الإمام النانوتوي شامًّا بين العلماء في عصره، وأحد رموز الإسلام التي أنجبتها أرض الهند وكبار المفكّرين الغيارى الذين شكّلوا سياجًا منيعًا حول الإسلام، عجز الاستعمار الإنجليزي البغيض عن اختراقه رغم جميع

ما كَرَّسَه من الوسائل لمحو الإسلام من أرض الهند ولإعادة سيناريو المأساة التي مارسها الصليبيون مع الإسلام والمسلمين على أرض الأندلس.

لقد كان عالمًا نحريرًا – بمعنى الكلمة – وداعية ربّانيًّا، وتلميذًا لتلاميذ أسرة **الإمام المحدث الشاه وليّ الله أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي** صاحب «حجة الله البالغة» (١١١٤هـ/ ١٧٠٣م = ١١٧٦/ ١٧٦٢م) جمع بين العلم العميق؛ والنظر الثاقب الدقيق؛ والذكاء العجيب؛ والملاحظة الدقيقة؛ والتشرّب البارع لروح الشريعة؛ والمعرفة المثمرة بالعصر وحاجاته، والحاضر ومُقْتَضَيَاته، والأخطار المحدقة بالإسلام، والأسلوب الناجع لمواجهتها؛ إلى جانب الزهد التامّ في الدنيا، والرغبة المطلوبة في الآخرة، والبساطة في كل من طريقة عيش الحياة والمأكل والملبس، والقناعة بالكفاف. كلٌّ من رآه أيقن أنه جنديٌّ من جنود الله، وعبدٌ من عباده المخلصين، وصنيعٌ من صنائعه.

نَاظَرَ كبارَ القساوسة والعلماء الهندوس الذين كانوا يُشَكِّلون سَعَالِيَ مهوبة أيّامئذ، وأفحمهم بحيث لم يَتَشَجَّعُوا

بعدُ أن يواجهوه. وعَمِلَ على بعث الإسلام في هذه الديار، والإبقاء عليه بمساعيه الميدانية، إلى جانب خطاباته ومحاضراته الشعبية والعلمية، وكتاباته ومؤَلّفاته الرصينة، التي تفيض فراسةً إيمانيةً، وحكمةً دينيةً، وفلسفةً إسلاميّةً، وبصيرةً فكريّةً، وتُقْنِع العقلَ، وتُغَذِّي القلبَ، وتَفْتَحُ الذهنَ، وتَشْرَح الصدرَ، وتجعل الممتنع المتنكّر من أعداء الإسلام يخضع لحقيّة الإسلام.

كما شنَّ حركةً واسعةً قويةً، مدفوعًا دفعًا جارفًا بداعي الإيمان، لإقامة مؤسسات التعليم والتربية ومراكز الإشعاع الإسلامي. بدأهَا بتأسيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم بمدينة «ديوبند» وثَنَّاها بمعاهد أخرى في شتى الأمكنة، وتَرَكَهَا حركةً جاريةً ساريةً في أرجاء هذه الديار التي عمرت اليوم بآلاف من المدارس والجامعات الإسلامية الأهلية التي هي بمثابة مَحَطَّات توليد الحياة للجسم الإسلامي في هذه القارة.

**وهذا الكتاب** الذي نَعْتَزُّ اليوم بوضعه بين يدي القراء يرجع سببُ تأليفه إلى أنه عَقَدَ يوم ٧/ مايو ١٨٧٦م الموافق

١٢/ ربيع الثاني ١٢٩٢هـ كلٌّ من الهندوسي «**المنشي بياري لال**» (Munshi Peiare Lal) من سكان قرية «جاندابور» (Chandapur) بمديرية «شاهجهانبور» (Shah Jahan Pur) بالهند، والقسيس «نولس» (Noles) مهرجانًا باسم «مهرجان معرفة الله». وذلك بقرية «سربانك بور» (Serbang pur) الملاصقة لـ «جاندابور» المذكورة. ونشر في أنحاء المنطقة كلها إعلانات مطبوعة بذلك، دعا من خلالها علماء كل ديانة للمشاركة فيه وطرح دياناتهم ودلائل حقيّتها.

و«مهرجان معرفة الله» أو «مهرجان دراسة الديانات» كان جزءًا من مُخَطَّطَات التبشير المسيحي؛ حيث عُقِدَتْ مهرجاناتٌ خلال فترات في عدد من الأمكنة. وكان من فضل الله أن علماء الإسلام هم الذين حقَّقُوا الانتصار في كل منها.

وقد أحاط مسلمو مدينة «شاهجهانبور» ومدينة «بريلي» **الإمامَ محمد قاسم النانوتويّ** بموعد انعقاد المهرجان المشار إليه، مُلِحّين عليه لمشاركته؛ فتَعَرَّفَ – رحمه الله – على

الموقف بالمراسلة، ثم عزم على حضوره وقد حان موعدُه ٧/ مايو ١٨٧٦م.

وبما أنّه – رحمه الله – كان لا يعرف ما سيُعْمَل به من الأسلوب لدراسة حقيّة كل من الديانات وتقديم الدلائل عليها: هل سيُنْتَهَجُ أسلوب طرح الاعتراضات والإجابات، أو أسلوب المحاضرات الشفهيّة، أو أسلوب تقديم الدراسات المكتوبة؟ فنظرًا لعدم العلم بذلك كتب الإمام – رحمه الله – تحسّبًا لمواجهة الموقف على بصيرة وهدى وبقوة مذكرةً تشتمل على أصول الإسلام وفروعه اللازمة مراعيًا في طرحها الدلائلَ العقليةَ التي لايسع عاقلاً منصفًا إلاّ أن يعترف بها ويخضع لها. وبما أن الفرصة كانت ضيّقة جدًّا فكتبها جامعةً على عجل في مدة يوم وجزء من الليل.

وتحَدَّثَ – رحمه الله – في المهرجان شفويًّا في ضوء ما كان قد كتبَه. وكانت مضامينُ حديثه دارت حول حقّانيّة الإسلام، وكان ما عَرَضَه مُعَضَّدًا بالدلائل العقلية، وصادرًا عن ذكائه البالغ، وعلمه الجمّ، وعارضته القوية، وقدرته

الفريدة على إقناع العقول، بمصداقية الدين الإسلامي، وفضيلته على الأديان، وكونه هو الحقّ وحده.

ولم تمسّ به الحاجةُ إلى تقديم ما كان قد أعدّه كتابيًّا؛ ثم إنّ تلميذه النجيب **الشيخ فخر الحسن الكنكوهي** – رحمه الله – (١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م = ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) استأذنه – رحمه الله – ليطبعه باسم «**حجّة الإسلام**» فتناوله العلماء مطبوعًا بنهم وشغف؛ ثم تكررت طبعاتُه بالأردية، وكثرت الاستفادةُ منه، بوصفه حديثًا ثمينًا لطيفًا في موضوعه الذي يعالجه.

لأنّه – رحمه الله – أسلوبه في الاستدلال يعتمد دائمًا منطقَ العقل؛ فهو أولاً يطرح دعوى، ثم يُثْبِت حقيّتها بشكل عقلي، ثم يُعَزِّزها بأمثلة من واقع الحياة مُشَاهَدَةً ملموسةً؛ فَيَتَثَبَّتُ ما يدّعيه في الأذهان؛ فكان أسلوبه طرحَ المعقولات مُتَمَثِّلَةً في المحسوسات.

والكتاب يبحث أربعَ قضايا:

(ألف) الغرض من خلق الإنسان.

(ب) التوحيد.

(ج) النبوّة أو الرسالة.

(د) اللحم: كونه حلالاً أو حرامًا.

## المبحث الأول

ضمن المبحث الأوّل – الغرض من خلق الإنسان – يقول المؤلّف الإمام: إن كلاًّ من أشياء الكون تَمَّ خلقُه لغرض من الأغراض؛ فلا بدّ أن الإنسان أيضًا خُلِق لغرض. وهو طاعةُ خالقه الله تعالى. إن العين غرضها الأصليّ الإبصار، والأذن غرضها الأصليّ السمع، والأنف غرضه الأصلي الشمّ، كذلك الإنسان غرضه الأصلي طاعة الله. ولمزيد من الإيضاح يقول: إنّ كُلاًّ من الأشياء التي توجد فيما بين الأرض والسّماء، من الأرض والماء، والهواء، والنار، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، وما إلى ذلك، يخدم الإنسان بشكل من الأشكال؛ ولكنّ الإنسان لايخدم أيًّا منها؛ فلو لم تكن لاستحالت حياةُ الإنسان أو صعبت عليه للغاية. ولو لم يكن الإنسان لما تضرّرت هي بنحو. فإذا لم يخدم الإنسان المخلوقات، فلابدّ أن يكون مُسخَّرًا لخدمة خالقه، وإلاّ كان خلقُه عبثًا ولغوًا، ويعود

على الخالق الاعتراضُ بالتشاغل بالعَبَث. ولايجوز أن يكون الإنسان مخلوقًا عبثًا لاطائل من ورائه؛ لأننا عند ما نقارن بينه وبين غيره من المخلوقات، نجده أفضل وأشرف منها جميعًا، وهو الذي يستخدمها جميعًا؛ فكيف يجوز أن تكون هي مُسَخَّرة لخدمته، ويكون هو عقيمًا لاغيًا؛ فلابدّ أن نقول بأنّ الغرض من خلقه إنما هو طاعة الله.

على كل فالإنسان خُلِقَ لطاعة الله؛ فانصرافُه إليها كان الغرضَ الأصليَّ في شأنه. وكذلك الأمور التي تتوقّف عليها الطاعةُ – مثلاً: توفيرُ ضرورات الحياة – تُعْتَبَرُ داخلةً ضمن الطاعة، كما أنّ إعداد الخبز مُتَوَقِّف على كل من النار، والحطب، والطاجن، والمعجن، وما إلى ذلك؛ فذلك كله يُعْتَبَرُ في عِدَاد الخبز.

فانصرافُ الإنسان إلى غير طاعة الله وما هو في عدادها، يُعَدُّ شقاءً له، لكونه قد انصرف عن الغرض الأصليّ المُتَوَخَّى من خلقه.

والسببُ في شقاء وضلال الإنسان أمران: الخَطَأُ وغلبةُ الهوى. والمخطئون مَثَلُهم مَثَلُ المسافر أَخْطَأَ الطريقَ إلى المدينة

المقصودة إلى طريق آخر. ومَثَلُ المغلوب على أمرهم من الهوى مَثَلُ من هو ماضٍ في الطريق إلى المدينة المقصودة؛ لكن الرياح الجارية مُعَاكِسَةٌ وأنواعَ الحواجز تعترض الطريقَ، فكما أنّ المسافر السالك خَطَأً الطريقَ غيرَ الطريق المُؤَدِّي إلى المدينة المقصودة، لن يصلها، كذلك لن يصل المنزلَ المقصودَ – الجنةَ – من أَخْطَأَ الطريقَ المستقيم إلى الله إلى طريق آخر.

أمّا الماضون في الطريق المُؤَدِّي إلى الله، الذين يَصْعُبُ عليهم المضيُّ من ضَرَبَاتِ أهوَاءِ النفس، فهم قد يُرْجَى لهم أن يصلوا إلى المدينة المطلوبة – الجنة – متساقطين في الطريق ومُتَحَمِّلِين صعوباتِ العقاب والعذاب والألم.

وليس هناك ديانةٌ سوى الإسلام لم تَتَسَبَّبْ فيها أخطاءُ المُعْتَقَدَات في الضلال عن الصراط المستقيم. إنّ الإسلام هو الجادّة التي تُؤَدِّي المسافرَ إلى المدينة المقصودة. والإسلامُ مَبْنِيٌّ على أمرين: (التوحيد) الذي هو عصارة «لا إله إلا الله» و(الرسالة) التي هي خلاصة «محمد رسول الله».

## المبحث الثاني التوحيد

أثبت المُؤَلِّفُ الإمام – رحمه الله – وجودَ الله أولاً

بالدلائل العقلية؛ حيث أكدّ أن وجودَ الله أصليّ وذاتيّ. أمّا وجودُ الإنسان فهو مُسْتَعَارٌ من وجود الله وقابلٌ للزوال. وأَعْقَبَ ذلك بإثبات وحدانيّة الله وقَدَّمَ عليها دليلين. ثم فَنَّدَ أن يكون ندٌّ لله أو ابنٌ له، كما أَبْطَلَ عقيدةَ التثليث بشكل عقليّ، وأثبت أن الله هو المستحق للعبادة، ثم بحث العبادةَ ومظهر العبادة، وبَيَّنَ فلسفةَ كل من أركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحجّ.

## المبحث الثالث الرسالة

ثم أثبت الحاجةَ إلى الرسالة قائلاً: إذا كان الله تعالى خالقنَا ومالِكَنا جميعًا ومُطَاعَنا وموضعَ حبِّنا جميعًا، فلابدّ من اجتناب سخطه وطلب رضاه. ورضاه وغضبُه لايُدْرَكَان بدون الدلالة عليهما. ونحن البشرَ لن يطَّلِع بعضُنا على ما يُكِنُّه قلوب بعضنا مَهْمَا قَرُبْنَا منه أو ضَمَمْنَا صدورَنا بعضَها إلى بعض، حتى يُطْلِع بعضُنا بدوره بعضًا منا على مكنونات قلبه. وإذا كانت هذه حالتنا نحن البشر، فكيف بنا فيما يتعلق بما في قلب الله وفيما يتعلق برضاه وسخطه، إننا لن نطّلع على ذلك إلاّ بإطلاعه هو إيّانا عليه.

لكنه كما أن الملك لا يُبَلِّغ بدوره أوامرَه ومراسيمَه كلاًّ من شعبه، وإنما يعتمد لتبليغ المراسيم والرسالات أشخاصًا يتولَّون تبليغَها، كذلك هناك أفراد مُصْطَفَوْنَ مختارون يُكَلَّفُونَ تبليغَ رسالة الله عبادَه وهم الذين يُسَمَّوْنَ رُسُلاً وأنبياء.

## مدار النبوة أو الرسالة

يقول المُؤَلِّف الإمام: إنّ عمادَ النبوة ثلاث فضائل: الأولى فضيلة الإخلاص لله وحبُّه حبًّا يحول دون مجرد التفكير في معصيته؛ الثانية فضيلة الخلق العظيم. ذلك أن كل أحد يُعَامِل غيرَه حسبَ أخلاقه، فإن كانت حسنةً فالمعاملة حسنةٌ وإن كانت سيِّئَةً فالمعاملةُ سيِّئَةٌ؛ والثالثة فضيلة العقل والفهم التامّ؛ لأنّ قلة الفهم عيبٌ كبير، إن أحدًا إنما يُقَرِّب الآخر لِيَعِيَ ما يقول ويُفْهِم غيرَه، ويعمل به ويدعو غيره للعمل به.

ويُضِيْفُ: إنّ المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء ولاسيّما أولى العزم منهم كسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام، ويُفَضِّلُون عليهم محمدًا - ﷺ -.

ثم أجرى المُؤَلِّف مقارنةً موجزةً بين سيدنا محمد - ﷺ - وغيره من الأنبياء، كما أجراها بين معجزاته - ﷺ - ومعجزات غيره من الأنبياء، وأثبت بالدلائل العقليّة أنه - ﷺ - أفضل الأنبياء بالنسبة إلى المعجزات كذلك.

## المبحث الرابع حلة وحرمة اللحم

وفي النهاية بحث حلةَ وحرمةَ اللحم في ضوء الدلائل العقليّة، وتَوَصَّلَ إلى أنّ أكل اللحم ليس فقط جائزًا للإنسان، وإنما هو مقتضى الفطرة الإنسانية. وفَنَّدَ الاعتراضَ الذي يورده غيرُ المسلمين على المسلمين بأنهم من أجل إشباع شهوة الأفواه يقتلون الحيوانات، إن ذلك لظلم عظيم !.

يقول المُؤَلِّفُ - رحمه الله - إن التَّصَرُّفَ في الشيء المملوك لأحد إنما يُعْتَبَرُ ظلمًا إذا كان بدون الإذن منه؛ فإذا كان المسلمون يذبحون الحيوانات بدون إذن من مالكها - الله جلَّ وعلا - فإنّ ذلك لظلم؛ لكنهم لايذبحونها إلاّ بإذن منه، ولا يَتَصَرَّفُون في مملوكاته إلاّ برضا منه. فإذا كان ذبح الحيوانات ظلمًا - كما يعتقد غيرُ المسلمين - فكيف لايكون

منعُ المالك من التصرف في مملوكه ظلمًا؟! ثم إن ركوبَ الحيوانات، وتحميلَها الأثقالَ، وحَلْبَ حليبها، وتَنَاوُلَه، مبنيٌّ على أيِّ استحقاقٍ؟

ثم تطرق المُؤَلِّف الإمام – رحمه الله – إلى إبانة الفرق بين ما هو حلال وما هو حرام من الحيوانات، والفرق بين المذبوح والميّت منها، كما أبان المصلحةَ العقليةَ في ذبحها باسم الله تعالى.

ونحن إذ نُقَدِّم الكتابَ في قالب لغة الإسلام: اللغة العربيّة، نشعر بسعادة بالغة تَغْمُرُ جوانحَ قلوبنا. وقد كانت أمنيّةً راودت قلوبَ المسؤولين عن الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند منذ وقت طويل، أن يُنْقَل جميع التراث العلمي الإسلامي الهائل الذي تركه بُنَاتُها وأبناؤها الأعلام باللغة الأردية، إلى العربية التي ضمِنَ الله عَزَّوَجَلَّ خلودَها ضِمْنَ وعده بحفظ كتابه الأخير؛ حتى يكون ذلك عونًا على بقاء هذا التراث القيِّم، ويكون في الوقت نفسه سببًا في تواصل الاستفادة منه؛ فنكون قد أدّينا بعضَ ما يجب علينا نحن الخلف من العرفان بالجميل تجاه هؤلاء السلف

الصالحين الذين أَمْضَوْا أعمارَهم في خدمة الدين والعلم.

ولقد أحسن الأخ العزيز الفاضل **الشيخ نور عالم خليل الأميني** – الكاتب والداعية الإسلامي المعروف، رئيس تحرير مجلة «الداعي» العربية الصادرة عن الجامعة وأستاذ الأدب العربي بها – إذ كان أَوَّلَ من قَرَّرَ نقل مُؤَلَّفَات مشايخ دارالعلوم/ ديوبند ومُؤَسِّسيها، إلى العربية على صفحات «الداعي» فمال هو أولاً إلى نقلها، ثم رَغَّبَ عددًا من خريجي الجامعة من تلاميذه وغير تلاميذه، ليقوموا بمسؤولية تعريب التراث العلمي للمشايخ، فيكون ذلك سعادةً لهم – للناقلين للتراث إلى العربية – في الدنيا وذخرًا وأجرًا في الآخرة.

وقد صدر عددٌ من مُؤَلَّفَات علمائنا باللغة العربية عن طريق مجلة «الداعي» واستحسن جميعُ أبناء الجامعة هذا الصنيعَ، وأجمعوا على تقديم الشكر إلى القائمين بهذا العمل الجليل والجهد النبيل، وعلى رأسهم **الشيخ نور عالم خليل الأميني**. وأُعْجِبَ بذلك جدًّا جميعُ مسؤولي الجامعة، وزفُّوا الدعاء والشكر والتقدير إليهم، راغبين رغبةً مُلِحَّةً في

الاستمرار في القيام بهذه المسؤولية المُشَرِّفَة. وَفَّقَ الله **الشيخ نور عالم الأميني** وغيره من الأساتذة المعنيين بها، للمزيد من إنجاز أعمال الترجمة لـمُؤَلَّفات المشايخ، وجزاهم موفورًا. وأطال أعمارَهم مع الصحة والعافية والتوفيق لكل خير.

والشكرُ موصولٌ لـلأخ الكريم **الأستاذ محمد ساجد القاسمي** أحد أساتذة الجامعة الذي تَوَلَّى – على ترغيب من **الشيخ نور عالم خليل الأميني** – مسؤوليّةَ نَقْل هذا الكتاب لرئيس الطائفة المؤسسة للجامعة **الإمام الشيخ محمد قاسم النانوتوي**، ونَقْل غيره من مُؤَلَّفاته؛ لأن هذه المسؤولية كانت صعبةً لحد ما، لكون مُؤَلَّفات الإمام كلها صعبةً، بوصفها مُثْقَلَةً بالعلم، ومُعَقَّدَةً لنوع ما، بوصفها مبنيّةً على الدلائل العميقة، والإشارات اللطيفة، والاستنتاجات الدقيقة، والأطروحات الذكيّة.

ولكن **الأستاذ محمد ساجد** بذل الجهد اللائق والفرصة الثمينة من وقته، وتوفَّر على ترجمة الكتاب بحب وإعجاب يكنهما قلوب جميع المتخرجين من الجامعة نحو الإمام المؤلف – رحمه الله – وتَغَلَّبَ على الصعوبة، بدراسة متكررة

للنصّ الأرديّ، وبتفكير جادّ طويل في وضع بديل بالعربية لكل كلمة وتعبير بالأردية بقلم الإمام المؤلف – رحمه الله – فنجح في الترجمة الأمينة، وسال قلمه فيها، ونضج لإنجاز مزيد من أعمال الترجمة لمؤَلَّفَات الإمام النانوتوي – رحمه الله – أدام الله له التوفيقَ لينال سعادةَ نقل جميع تراثه –رحمه الله– ليحظى بجزاء الله وشكرجميع أبناء الجامعة الأحياء

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب بدأَ نقله إلى العربيّة أولاً **الأستاذ عبدالرشيد البستوي القاسمي** / أستاذٌ بالجامعة سابقًا، إلى نحو ثلثه. وقد اجتهد بالعربية لصياغة الإمام المؤلّف – رحمه الله – لأفكاره ولكن حال دونه ودون الاستمرار في الترجمة بعض العوائق، فلم يتمكن من إنهائه لها؛ فأجاد ما قام به من الترجمة بالعربية لأجزاء الكتاب، ثم تولّى القيام بنقل ما تبقّى من أجزاء الكتاب إلى العربيّة **الأستاذ محمد ساجد** وأنهاه مشكورًا، كما أشرنا إلى ذلك؛ فجزى الله تعالى كلا الأستاذين خير الجزاء.

وجزى الله تعالى أخانا الكريم فضيلة الشيخ **بدر الدين أجمل القاسمي** عضو مجلس شورى الجامعة ومدير **أكاديمية**

**شيخ الهند**، الذي استمرت عنايتُه منذ اليوم الأوّل بمُؤَلَّفات المشايخ، تحضيرًا للإصدار والطبع، وتشجيعًا للمعنيين من ذوي الأقلام والمُؤَهَّلِين من الشباب. وقد صدر باهتمامه عددٌ من المُؤَلَّفات القيمة من الأكاديمية. وهذا الكتاب أيضًا يصدر ضمن سلسلة الإصدارات التي تقوم بها الأكاديمية تحت رعايته. فجزاه الله خيرًا.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين[1].

تحريرًا في الساعة ٤ من مساء يوم الخميس

٨/ صفر ١٤٢٧ هـ

٩/ مارس ٢٠٠٦ م

***

(١) (صاغ هذه المقدمة باللغة العربية في ضوء انطباعاته – فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن – وآرائه نور عالم خليل الأميني، رئيس تحرير مجلة «الداعي» وأستاذ الأدب العربي بدارالعلوم / ديوبند)

# كلمة المشرف

## فضيلة الشيخ بدرالدين أجمل القاسمي / حفظه الله

الحمدلله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين. وبعد:

فمن أهمِّ أهداف **أكاديمية شيخ الهند** نشرُ مؤلَّفاتِ مشايخ الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند في ثوب قشيب. وقد نَشَرَتْ إلى الآن عددًا لا بأس به من مؤلفاتهم التي لَقِيَتْ إعجابًا وقبولاً بالغَيْنِ في أوساطِ العلم والمعرفة.

وهذا الكتابُ «**حُجّةُ الإسلام**» من أهمِّ مؤلّفاتِ الشيخ محمد قاسم النَّانوتوي رئيس الطائفة المؤسسة للجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند الذى بحث فيه الإسلام وأركانه الأساسية من العقيدة والعبادة والرسالة بحثًا فلسفيًا موجزًا.

وقد كان الكتاب في اللغة الأمّ: الأردية؛ فتعميمًا للفائدةِ وإتاحةً للفرصة لقرّاء العربية قَامَ بترجمته إلى اللغة العربية

الأستاذ **محمد ساجد القاسمي** أستاذ بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند، وقد نُشِرَت الترجمة على صفحات مجلة «الداعي» الغرّاء الصادرة من الجامعة.

والأخ الفاضل **محمد ساجد القاسمي** من الأكفاء والمؤهلين، يُتْقِن اللغة العربية ويمتلك ناصيتها؛ فقد نقل عددًا من الكتب من وإلى العربية؛ لاسيما مؤلفات مشايخ الجامعة ولا يزال ينقل، فله شكري وتقديري.

وقد كان المترجم موفقًا حيث ترجم الكتاب ترجمةً حرفيةً أمينة محافظةً على مراد المؤلف ومطالبه، فجزاه الله خيرًا.

وأدعو الله أن يمنَّ على المترجم بالصحة والعافية ويوفقه لمزيدٍ من الأعمال والخدمات العلمية.

بدرالدين أجمل القاسمي
المشرف على أكاديمية شيخ الهند
وعضو المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية
دارالعلوم/ ديوبند
١٤/ ٤/ ١٤٢٧هـ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٦م

# كلمة المترجم

نحمده ونصلِّي على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ:

فهذا الكتاب الوجيز القيّم المترجَم «حجةُ الإسلام» من أهمِّ مؤلفات الإمام الشيخ محمد قاسم النانوتوي رئيس الطائفة المؤسسة للجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند، الذي درس فيه الإسلام بعقيدته وعبادته ونبوةِ نبيه بأسلوب فلسفي مقنعٍ مبتكرٍ.

وكانت قصة الترجمة أن فَوَّضَ أديب العربية الكبير الشيخ **نور عالم خليل الأميني** أستاذ الأدب العربي بالجامعة ورئيس التحرير لمجلة «الداعي» الصادرة منها – مسؤولية الترجمة إلى الأستاذ الفاضل **عبدالرشيد القاسمي البستوي** أحد أساتذة الجامعة سابقًا؛ فقام بترجمة ثلاث حلقات – من بداية الكتاب إلى عنوان «من المجاز إطلاقُ كلمة الأب على الله» – نُشِرَتْ في مجلة «الداعي» ثم اعتذر عنها لشواغله

ومسؤولياته الكثيرة المتنوعة.

فدعاني الشيخ وطلب مني أن أقوم بترجمته ورغَّبني فيها ترغيبًا شديدًا ودعا لي بالنجاح والتوفيق؛ فنزولاً عند أمره بدأت بالترجمة، وكان عهدي بالنقل والترجمة حديثا، فزوَّدني بآراء وتوجيهاتٍ ساميةٍ عن فَنِّ الترجمة، مما أضاء لي المشوار وسهَّل لي السير فيه، ونشرها في مجلة «الداعي» في حلقات.

كان الشيخ يُحِبُّ حبًا جمًا أن يُنْقَلَ إلى العربية جميع التراث العلمي الهائل الذي خلَّفَه مشايخ الجامعة وعلماؤها الربانيون باللغة الأمّ: الأردية. فقد قامَ هو بنفسه بنقل عدد لاباس به من كتبهم إلى العربية، كما قام تلاميذه بمسؤولية نقل بعض كتبهم تحت رعايته وإشرافه.

وعند ما ألقى مسؤولية ترجمة هذا الكتاب على عواتقي كان يُشَجِّعُني على مواصلة السير قائلًا: «عليك بترجمة جميع مؤلفات الإمام النانوتوى؛ فإن لم تمس الحاجة إلى مؤلفاته في هذا العصر فعسى أن يأتي عصر تنتفع فيه الأمة الإسلامية بمؤلفاته؛ لأن الزمان يدور كهيئته، كما أن اللغة العربية لغة

خالدة، فما أو دعناها يبقى مصونًا محفوظًا للأبد.

وقد حاولت جهد طاقتى أن لا يتغير مراد المؤلف في النقل؛ فإن كنت نجحت في الترجمة فذلك من الله، وإن أخفقت فيها فذلك من تلقاء نفسى.

وأدعو الله أن ينفعني به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وصلّى الله على نبيه الكريم وبارك وسلَّم.

محمد ساجد القاسمي

أستاذ بالجامعة الإسلاميَّة دارالعلوم/ ديوبند

١٦/ ٢/ ١٤٢٧هـ ١٧/ ٣/ ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

# ترجمة المؤلف(*)

## ( الإمام محمد قاسم النانوتوى رحمه الله )

### ولادته ونسبه

هو حجة الإسلام محمد قاسم بن أسد علي بن غلام شاه بن محمد بخش بن علاء الدين الصديقي النانوتوي، وُلِدَ في أسرة عريقة في المجد والشرف بقرية «نانوته»(١) في شوال ١٢٤٨هـ / مارس ١٨٣٣م، ونسبه ينتهي إلى قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أما أبوه الشيخ أسد علي (١٢٩١هـ / ١٨٧٥م) فكان رجلاً صالحًا قليل الثقافة كريماً حسن الخلق مِضيافاً، يجالس العلماء والصالحين، وكان يمتلك الأراضي والعيش عليها.

---

* بقلم : **محمد ساجد القاسمي** أستاذ بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند .

(١) نانوته (NANOTA) إحدى القرى الجامعة التابعة لمديرية سهارنفور ، بولاية أترابراديش ، الهند.

## تعليمه ودراسته

كانت تظهر عليه علائم الذكاء والفطنة منذ بواكير الصبا؛ فقد أخذ مبادئ القراءة والكتابة في قريته، ثم نُقِلَ إلى «ديوبند» حيث قرأ كتباً في الفارسية وفي قواعد النحو والصرف على الشيخ مهتاب علي الديوبندي (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) في مدرسته، ثم حُمِلَ إلى خؤولته في «سهارنفور» حيث قرأ كتبا في الفارسية والعربية على الشيخ محمد نواز السهارنفوري، فلما توفيّ جده من الأم عاد إلى قريته.

ثم استصحبه الشيخ مملوك العلي النانوتوي (١٢٦٧هـ / ١٨٥١م) إلى دهلي، وأسكنه في منزله حيث درس عليه الكافية في النحو، وكتب المنطق والفلسفة. كان منزل الشيخ مملوك العلي النانوتوي بالقرب من مسجد الشيخ نوازش علي الدهلوي، وكان يجتمع فيه جمٌّ غفير من الطلاب، وكانت تجري بينهم مباحثات ومناقشات علمية، فكان يشارك فيها ويغالبهم فيغلبهم جميعًا؛ فطار صيته وعُدَّ مبرِّزًا.

ثم ألحقه الشيخ مملوك العلي النانوتوي بالكلية

العربية«كلية ذاكر حسين حاليا» في دهلي، وقال لأستاذه في الرياضيات: إنه لا يستنكف هو من شأنه، وأنا أدرِّسُه بنفسي، وأمره الشيخ أن يطالع أقليدس بنفسه ويتمرن على القواعد. فما إن مضت أيام قلائل حتى أنهى جميع مقالاته البسيطة وأكمل الحساب؛ مما أدهش الأساتذة والطلاب جميعًا. فناقشه الطلاب ووجَّهوا إليه أسئلةً فردَّ عليها ردًّا صحيحًا، ثم طرح إليه المنشئ ذكاء الله الدهلوي (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) أسئلةً صعبةً غايةً في الصعوبة، فأجابَ عنها إجاباتٍ صحيحةً، مما أكسبه شهرةً كبيرةً. فلما حان موعد الامتحان السنوي غاب عن الامتحان وغادر الكلية خوفًا على نفسه الفتنة وتفاديًا من الإعجاب بنفسه؛ فأسِف عليه أسفاً شديداً أساتذة الكلية - لاسيما «طيلر (J.H. TAYLOR) »أستاذ اللغة الإنجليزية فيها - الذين لم يعرفوا طبيعة الشيخ في مسار حياته وأطوارها.

ثم دَرَسَ الشيخ الصحيح للبخاري والصحيح لمسلم والسنن للترمذي والموطأ لمالك، وتفسير الجلالين على الشاه عبد الغني المجددي الدهلوي (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م)، كما درس السنن لأبي داؤد والسنن للنسائي والموطأ لمالك على

الشيخ أحمد علي السهارنفوري المتوفى ١٢٩٧هـ.

وبايع هو وصديقه وزميله في الدرس رشيد أحمد الكنكوهي على يد الحاج الشيخ إمداد الله الفاروقي التهانوي ثم المكي (١٢٣٣هـ / ١٣١٧هـ) وتخرَّجا عليه في التزكية والإحسان.

## مواهبه وأخلاقه

كان غايةً في الذكاء فطينًا، عالي الهمة جلدًا شجاعًا مبرِّزًا في أقرانه، حسن الخط. وكان مثالاً في البساطة، صموتًا من غيرعِيٍّ، متواضعًا، متقشفًا في المأكل والمشرب، ومتخشنًا في الملبس والمسكن، وأحبُّ شيء إليه الخمولُ والعزلةُ، وأكره شيء إليه الصيتُ والشهرةُ، وكان صبورًا على المكروه لا ينبس فيه ببنت شفة وكان كريمًا سمح اليد مضيافًا.

وقد أراد أن يعيش عزبًا، ولكن أباه وشيخه ضغطا عليه فرضي للزواج.

وكان يُخفِي نفسه – جُهدَ طاقته – فكان لا يُحِبُّ أن يُشَار إليه بالبنان، ويُعْرَفَ في أوساط الناس بالشيخ أو

العالم، وكان لا يُفتي بالفتوى، ولا يـؤُمُّ النـاس في الـصلاة، فإذا أفتى كان لا يوَقِّع على الفتوى إخفاءً لنفسه. وقد مـضى عليه حين من الزمان، كان يكره فيه أشدَّ الكراهية أن يدعوه الناس بالشيخ أو بالمولوي، فإذا دعـوه باسـمه لبَّـى وتهلـَّل وجهه فرحًا.

وكان بادئ ذي بدءٍ لا يعظ ولا يخطب بين النَّاس، وقد فتَقَ لسانَه خطبةٌ ألقاها في «كاندهله» بـأمر الـشيخ الـصالح مظفر حسين الكاندهلوي (١٢٢٠هـ/ ١٢٨٣م).

## أعماله ونشاطاته

فلما تُوفِّيَ أستاذه الشيخ مملـوك العـلي النـانوتوي غـادر منـزله، وعَمِلَ فترةً مصححًا في المطبعـة الأحمديـة في دهـلي، وسكن أيامًا في مدرسة دار البقاء بدهلي.

ومـن الجـدير بالـذكر أنَّ أسـتاذه الـشيخ أحمـد عـلى السهارنفوري حلّى جيد الصحيح للبخاري بالهوامش، وقـد ترك - لأمر مَّا - أجزاءً في آخره لم يعلق عليها.

وأثناء عمله في المطبعة الأحمدية أمره أستاذه الشيخ أحمد على الـسهارنفوري بكتابـة الهـوامش عـلى الأجـزاء الباقيـة

للبخاري، فقام بكتابتها خير قيام. كما عمِلَ مصححًا في كل من المطبعة المجتبائية وفي المطبعة الهاشمية في «ميروت» (MEERUT)، وكان خلالَ عمله في المطبعة يدرس الطلاب كذلك.

## جهاده ضد الإنجليز

انفجرت ثورةٌ عارمة ضدَّ الاحتلال الإنجليزي في الهند، وذلك عام ١٨٥٧م، واجتاحت الهند الشمالية، فوقعت معارك دامية مع الإنجليز، ومنها معركة «شاملي»[1] التي خاضها الحاج الشيخ إمداد الله وأصحابُه الذين كانوا من كبار العلماء وأولياء الله وعلى رأسهم الشيخ محمد قاسم النانوتوي، والشيخ الحافظ ضامن الشهيد، والشيخ منير النانوتوي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. وهزموا الإنجليز هزيمةً منكرةً؛ فاستشاط الإنجليز غضبًا، فدمَّروا قرية «تهانه بهون» وعاثوا فيها فسادًا، وأعلنوا أن الحاج إمداد الله وأصحابه أعداء أَلِدَّاء للإنجليز وثُوَّارٌ عليهم؛

(١) شاملي: قرية من القرى الجامعة التابعة لمديرية «مظفر نغر» عُرفت بمعركة وقعت عندها وخاضها علماء ديوبند مع الإنجليز.

فحاولوا القبض عليهم، فهاجَرَ الشيخ إمداد الله مختفيًا إلى مكة المكرمة، وبقي الشيخ محمد قاسم مختفيًا في الهند يتنقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة، حتى أعلن الإنجليز عن العفو العام عن الثوار والمجرمين. فاستقرَّ مقام الشيخ في وطنه لأيام، ثم عمل مصححًا في المطبعة المجتبائية بـ «ميروت».

## تأسيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند

انقرضت الدولة المغولية في الهند وطُوِيَ بساطها، وقامت حكومة الإنجليز على أنقاضها، وقد ناصب الإنجليز العداء للمسلمين فقتَّلوهم تقتيلاً، وصادروا الممتلكات والأوقاف، وخرَّبوا دور العلم ومعاهد التعليم، وبثوا القساوسة والمبشرين في طول البلاد وعرضها لتحويلها دولةً مسيحيةً، وأصبح أمر المسلمين في هرج ومرج.

هنالك قامَت طائفة من العلماء الغيارى المخلصين، وقد أهمَّهم أمر الإسلام في هذه البلاد والحفاظ عليه، ففكروا وفكروا حتى ألقى الله في رُوعِهم فكرةً عظيمةً، وهي فكرة

تأسيس المدارس الإسلامية في مشارق البلاد ومغاربها، فتقدموا إلى مجال العمل، وكان الشيخ رأسهم وواسطة عقدهم؛ فأَسَّسُوا بأيديهم المباركة مدرسة عربية في ديوبند، وهي تُعرفُ الآن بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند.

ومن المآثر الخالدة للشيخ هذه الجامعة التي أُسِّسَ على التقوى من أولِّ يومها والتي قامت – ولا تزال – بالحفاظ على الإسلام وهوية المسلمين، وأدت ولا تزال وستظل تؤدي خِدماتٍ جليلةً نحوهم.

لم تقتصر خدماتها وبركاتها على شبه القارة الهندية فحسب بل عمَّت العالم كله. واستعراض خدماتها وأعمالها الجليلة يحتاج إلى مجلدات كبار.

كان الشيخ حركةً مستقلةً لتنفيذ هذه الفكرة، فكرة تأسيس المدارس الإسلامية، فكان قد أَسَّسَ نحو عشر مدارس في المدن المختلفة في المناطق الشمالية في الهند.

## مناظراته مع القساوسة و علماء الهندوس

ولما كان الشيخ مقيمًا بمدينة «ميروت» بلغه أنَّ القساوسة انتشروا في مدينة دهلي يُلْقون خطبًا عن ديانتهم

أمام الناس ويُضِلُّونهم؛ فأمر الشيخ تلاميذه بأن يذهبوا إلى دهلي ويلقوا خطبًا كذلك، ويساعدوا من يناظر القساوسة من علماء المسلمين حتى تواعد القساوسة وعلماء المسلمين على المناظرة وضربوا الموعد، فذهب الشيخ بنفسه وناظر القس «تاراجند» وسكّته وبكّته.

وفي ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م أقام المنشئ بيارى لال اجتماعًا باسم «معرض معرفة الذات الإلهية» على شاطئ نهر «غَرَّا» في قرية «جاندابور» في مديرية «شاهجهانفور» بولاية أترابراديش الهندية، وكان المنشئ «بيارى لال» يميل إلى المسيحية ويجالس القس «نولس» فعقد اجتماعًا بمشورته ومساعدته، ودعا إليه القساوسة وعلماء الهندوس وعلماء المسلمين. فأبلغ مسلمو مدينة «بريلى» والقرى المتجاورة لها الشيخَ، ودعاه للحضور في الاجتماع؛ فلبى دعوتهم وقد رافقه في سفره تلاميذه: الشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والشيخ رحيم الله البجنوري، وغيرهم من علماء دهلي كالشيخ السيد أحمد علي الدهلوي والشيخ أبوالمنصور الدهلوي. وحضر الاجتماع

وشارك في المناقشة، وألقى خطبةً بليغةً في الردِّ على عقيدة التثليث والإشراك بالله وإثبات التوحيد؛ مما أدهش السامعين من الموافقين والمعارضين، واعترفوا له بالفضل وغزارة العلم وقوة البيان ونصاعة البرهان؛ فَعَلتُ كلمتُه، وارتفع ذكره، وصار حديث المجالس والنوادي، ورجعَ منصورًا موفَّقًا من الاجتماع.

ثم أُقِيْمَ الاجتماع في السنة القادمة ١٢٩٤هـ، فحضره في نخبة من العلماء. وقد حضر الاجتماع هذه المرة بالإضافة إلى القساوسة حَبْرُ الهندوس وصنديدُهم «الباندت دياننـد سرسوتي» الذي كان اخترع دينًا جديدًا مُسْتَمَدًّا من الديانة الهندوسية، وكان يؤمن بالفيدات «الكتب المقدسة لدى الهندوس» ويرى التناسخ. شرح الباندت في الاجتماع معتقداته باللغة الهندوسية الممزوجة بكلمات اللغة السنسكرتية، فتصدى للرد عليه الشيخ محمد علي. ثم ألقى الشيخ خطبةً مؤثرةً في مسألة الوجود وإثبات التوحيد. وكان السامعون أثناء خطبته آذانا مصغية وقلوبًا واعيةً وعيونًا شاخصةً. ثم ناقش التحريف في الإنجيل ودلَّلَ عليه

حتى لاذ القساوسة بالفرار عن الاجتماع تاركين بعض كتبهم.

وكان القساوسة يقولون: «لو آمنّا بخطبةٍ لآمنا بهذه الخطبة التي كانت تأخذ بمجامع القلوب».

وفي شعبان عام ١٢٩٥هـ أتاه النبأ بأنَّ البانـدت « ديانند سرسوتي » ورد ببلدة « روركي » (Roorkee) وأخذ يوجّه الاعتراضات إلى الإسلام، فإذا تصدّى عالم من علماء المسلمين للردّ على اعتراضاته لا يلقي له بالاً ولا يرفع به رأسًا، وإنما يقول: «إني لن أناظر إلا المولوي قاسم» فدعا مسلمو بلدة « روركي » الشيخ لمحاورته والنقاش معه. وكان الشيخ يعاني أيامئذٍ السُّعال والمرض الشديدين الذين أصاباه خلال عودته من الحج، فاعتذر إليهم، ولكنهم مازالوا يُصِرُّون عليه، فبعث تلاميذه: الشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ عبد العدل الفلتي ليستعرضوا الأوضاع ويناظروا البانـدت إن رضي هو بالمناظرة معهم. فذهبوا إلى « روركي » وقابلوه وطالبوا أن يسمع هو منهم الإجابات عن اعتراضاته، ولكنه

لم يرضَ بالسماع منهم والمناقشة معهم، وقال: «إن حضر المولوي قاسم أناقشه وأناظره» فرجعوا إلى ديوبند، وأخبروه بالخبر.

ثارت فيه الغيرة على الإسلام وهو طريح الفراش، فاستعدَّ للسفر رغم مرضه وضعفه الشديدين، ووصل «روركي» ودعا الباندت إلى المناظرة واستماع الردود على اعتراضاته على رؤس الأشهاد.

اختلق الباندت أنواعًا من المعاذير، وطوى كشحه عن المناظرة، وولّى هاربًا مختفيًا. مكث الشيخ في بلدة «روركي» نحو سبعة عشر يومًا، وألقى على رؤس الأشهاد خطبًا ردَّ فيها على الاعتراضات التي أثارها الباندت ضدَّ الإسلام؛ ثم عاد إلى «ديوبند» ومكث فيها أيامًا، ثم ذهب إلى «نانوته» وألَّف «قبله نما» (لماذا يستقبل المسلمون الكعبة في صلاتهم؟) و «انتصار الإسلام» (ردود على الاعتراضات الموجهة إلى الإسلام) في الرد على اعتراضات الباندت.

ثم توجَّه الباندت إلى «ميروت» في ٣/ مايو ١٨٧٩م وألقى فيها عصا تجواله، وأعاد فيها الاعتراضات نفسها.

أخبر مسلمو «ميروت» الشيخ بمقدمه بعد أيام، فوصل الشيخ ميروت في ١٠/ مايو ودعاه إلى النقاش والحوار معه، فنأى البانديت بجانبه عن المناقشة وخرج من «ميروت» مختفيًا.

ألقى الشيخ خطبًا في ميروت في الرد على اعتراضات البانديت، وقد جمعها تلميذه الشيخ عبد العلي الميروتي في رسالة.

## وفاته

توفيَّ بعد صلاة الظهر ٤/ جمادى الأولى ١٢٩٧هـ / ١٥/ أبريل ١٨٨٠م، وصلّى عليه جمع غفير من الناس، ودُفِنَ بقطعة أرض وقفها صاحبها الطبيب مشتاق أحمد آنذاك، وعُرِفَتْ بالمقبرة القاسمية، وهي تقع في الشمال الغربي للجامعة.

## مؤلفاته

كان – رحمه الله – عالمًا ربانيًا، عبقريًا من عباقرة الأمة الإسلامية، وفيلسوفا من فلاسفة الإسلام يضارع الرازى والغزالي وابن تيمية. وقد اخترع أسلوبا فلسفيا جديدًا

لتفسير الإسلام والرد على معترضيه، ويتجلى أسلوبه الفلسفي المقنع في مؤلفاته واضحًا جليًا. وقد ترك عدة مؤلفات وآثارًا علمية ورسائل علمية في مختلف الموضوعات لوجمعت لبلغت عشرة مجلدات كبار، وهي كلها في اللغة الأم: الأردية. وقد تمَّ نقل بعضها إلى العربية. ومن أهم مؤلفاته: حجة الإسلام، وانتصار الإسلام (ردود على الاعتراضات الموجهة إلى الإسلام) «قبله نما» (لماذا يستقبل المسلمون الكعبة في صلاتهم؟) آبِ حياة (ماء الحياة) تقرير دل بذير (محاضرة في فلسفة الإسلام) مجموعة هفت رسائل (موسوعة الرسائل السبع).

## تلاميذه

إن الأوضاع في البلاد وطبيعة الشيخ لم تدع له فرصة أن يلقي عصاه في مدينة أو يدرِّس في مدرسة. وإنما ظلَّ متنقلاً من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى خدمةً للإسلام وجهادًا في سبيله، إلا أنه كان يدرس خلال رحلاته وقدماته ومكثاته، وقد تلمذ عليه عدد كبير من الناس إلا أنّ أشهرهم ثلاثه: وهم الشيخ محمود حسن الديوبندي،

والشيخ أحمد حسن الأمروهوي، والشيخ فخر الحسن الكنكوهي، وهم الذين تبنوا رسالته بعد وفاته في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين.[1]

❊ ❊ ❊

(١) الموادُّ مأخوذة من كتاب «ترجمة الإمام محمد قاسم النانوتوي» بالأردية للشيخ محمد يعقوب النانوتوي بتحقيق الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي.

# حجة الإسلام

# مقدمة

بقلم: **الشيخ فخر الحسن الكنكوهي**
أحد تلاميذ الإمام النانوتوي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد !

فيقول الأحقر فخر الحسن – عفا الله عنه – لمن يطالع هذا الكتاب: إن مولانا ومرشدنا الشيخ محمد قاسم – حفظه الله تعالى– كان قد تحدَّثَ إلى الحضور في الاحتفال الذي تمَّ عقده في ١٢٩٤هـ بمدينة «شاه جهان بور» بولاية «أترا براديش» حول إثبات التوحيد والنبوة وحقيقة دين الإسلام مُبَرْهِنًا بأدلة العقل. وبما أن كلمته هذه تقنع وتشفي قلوب المسلمين كان لزاما عليّ أن أقوم بنشرها حتى ينتفع بها الخاصة من المسلمين وعامتهم.

***

# الغرض من وراء خلقِ الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ( البقرة: ٣٢)

يا أيها الحضور في هذا الاحتفال ! إن هذا العبد الحقير وأنتم، بل بنو آدم كلهم، يرجع أصلهم إلى أب واحد وأم واحدة؛ ولذلك يجب على كل أحد أن ينصح للآخر، وأن يسعى لتحقيق حاجياته الأصلية.

غير أن العين والأنف كما جاء صنعهما للنظر والشمّ، وأن الغرض الأصلي من اللّسان والأذن إنما هو النطق والسمع، كذلك فإن الغرض الحقيقي من وراء خلق كلّ واحد من بني آدم، إنما هو أن يطيع الذي خلقه. ووجه الشبه بين هذين الأمرين أن بني آدم إنما خُلِقوا لأجل طاعة الله الخالق مثل ما جاء صنع العين والأنف والأذن واللسان

للنظر والشمّ والسمع والنطق.

وإني أشرح هذا الأمر فاستمعوا له ! إن كل ما نراه فيما بين الأرض والسماء – ما عدا الإنسان – يبدو أنه ينفع الإنسان؛ ولكن الإنسان – كما يبدو – لا يصلح لأن ينفع شيئًا منها. فانظروا في أنه لئن عَدِمَ شيء من الأرض والماء والهواء والنار والقمر والشمس والنجوم لاستحال أو صَعُبَ أن يعيش الإنسان، وأما إذا لم نكن نحن بني البشرية فلن يّضر ذلك أيًّا من هذه الأشياء بشيء . وقيسوا على ذلك أنه إذ لم تكن الخلائق الأخرى من الحيوانات والأشجار لَمَسَّنا شيء من الضرر لا محالة؛ فإنها – على الأقل – تنفعنا دواءً لمرضٍ أو آخر في وقتٍ مّا، غير أننا نجد أنفسنا أننا لسنا ولو دواءً لمرض هذه الخلائق.

فإذا ظهر أننا لا نصلح لأن ننفع خليقةً، فمن اللازم أن نكون قد خُلِقْنَا لصالح خالقنا، وإلاّ لذهب خَلْقنا عبثًا دونما جدوى، الأمر الذي يُسَبِّبُ تهمة الخالق بالتصرف بالعبث ويوجّه إلينا نقيصة البطالة. ومما لا يخفى على أحد أن الأمرين كليهما ممّا لن يقبله عاقل.

## لن يمكن أن يكون الإنسان مخلوقًا عبثًا

وأنّى لنا أن نقبل ذلك؟ فإنّ فضيلة وعظمة الإنسان على الخلائق الأخرى - ولاسيما الجمادات والنباتات والدوابّ وغيرها من الأشياء المحسوسة - جلية واضحة بدلالة الآثار وأعمال الإنسان وأفعاله وضوحَ فضيلةِ حِسَان الوجوه على قِباح الوجوه، وفضيلة ذوي أصوات مطربة على ذوي أصوات كريهة، وفضيلة الأذكياء على الأغبياء. فكيف يمكن أن تكون الخلائقُ كلها صالحة نافعةً، بينما يكون الإنسان غير مُجْد وشيئًا عبثًا. فظهر أن جميع الأشياء إذا كانت تخدم الإنسان، فإن الإنسان يكون خادمًا ومطيعا لله سبحانه وتعالى.

## لا يخلو فعلٌ من أفعال اللّه من حكمة

وعلاوة على ذلك إني أسألكم جميعًا: إننا لن نخطئ إذا قلنا: إن النار إنّما تحرق ولا تطفئ وإن الماء إنّما يطفئ ولا يحرق. فكيف نخطئ إذا نقول: إن الحكيم على الإطلاق إنما يفعل ما يفعل عن حكمة وإنه لا يفعل شيئًا عبثًا. حقًا كما أن النار إنما تحرق ولا تطفئ وأن الماء إنما يطفئ ولا يحرق،

كذلك فإن الحكيم على الإطلاق لن يفعل فعلاً إلا عن حكمة، وإنه لن يمكن أن يصدر منه فعل عن عبث. فكيف يمكن أن يكون قد خلق الله الإنسان عبثًا محضًا ودونما حكمةٍ بالغةٍ. أي أنه لم يقصد من خلقه نتيجةً، وإنما خلقه عبثًا باطلاً ! ولكنه قد ثبت أن خلقَ الإنسان لا يخلو من الحكمة، فذلك لا يعني إلاّ أنه خُلِقَ صالحًا لغرض، فهو لا يصلح أن يكون نافعًا إلا فيما يتعلق بالله تعالى، وقد اتضح آنفًا أنه خُلِقَ لا محالة صالحًا لعبادة الله.

نعم إذا كنا لا نقبل أنَّ الخالق حكيم في أمره؛ فلم يكن هناك بأس غير أنه مما يُقْضٰى له العجب أن عباده الذين خلقهم وأن ما يحظون به (من ميزة وفضل) إنما رزقهم الله إياه. كثير من العباد يُعَدُّون حكماء كبارًا؛ فلو لم يكن الله الخالق حكيما لما كان سبيل إلى كونهم حكماء. وعما قريب سينال هذا مكانه في القلب إن شاء الله.

## الإنسان مخلوق

نعم ! إذا لم يكن الإنسان مخلوقًا لكان من المُحتَمل أن الحكمة في معنى الغرض إنما تتصل بالشيء الذي كان قد تمّ

صنعه وخلْقُه، وأنه لنا أن نقول: إنما صُنِعَ هذا الشيءُ لكذا من الغرض. فأما إذا لم يكن قد صنعه أحد، ولم يُرِدْ أحد صُنْعه، ولم يُعْنَ به أحد كمثل الربّ سبحانه وتعالى، فلا مجال هناك للغرض، وإن كان كل أحد يحتاج إليه في حاجاته. والعجيب أن ذوات بني آدم وصفاتهم أنفسهم تشهد بلسان الحال أنهم مخلوقون. كما ستنحلّ هذه العقدة عما قريب إن شاء الله.

## الإنسان العاصي ذو حظ سيء

فخلاصة الحديث أن الغرض الأصلي من وراء خلق الإنسان أن يعمل لله تعالى ولا يشتغل بأمر سواه. وإلاّ لما كان مُحتَملا أن يصدر عنه عمل أفضل من «الغرض الأصلي» وإلاّ لكان ذلك العمل هو المقصود من خلقه، ولأصبح كمثل الثوب الذي يُنْسَجُ ليُتَّخَذَ لباسًا؛ ولكنه أُحرِقَ ليُخْبَز به الخبز بدل أن يُلْبَسَ. ومن بداهة الأمر أن ذلك يُعَدُّ سوءَ حظٍّ بالنسبة للثوب، وكذلك الإنسان الذي حُرِمَ الغرض الأصلي من خلقه لن يَشُكَّ أحد في أنه سيء الحظ.

## طاعة اللّه إنما ينتفع بها الإنسان ولا ينتفع بها اللّه

ولكنه مما لا يخفى على أحد أن الله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل إنما يحتاج إليه كل شيء، كما يظهر ذلك بالأدلة عن قريب إن شاء الله. فثبت أنه ليس للإنسان شغل ما عدا إطاعة الله فيما يأمره به، وأن الإطاعة هذه لا يترتب عليها إلا نفع بني آدم وحدهم. ومثال ذلك أن إطاعة المريض الطبيب إنما تنفع المريض ولا تعود بفائدة على الطبيب. وكذلك فإن إطاعة العبد الله تعالى إنما تنفع العبدَ ولا تنفعه سبحانه وتعالى. ولا يمكن ألا تعود الإطاعة على أحد بفائدة؛ لأن ذلك أيضًا يؤدي إلى اتهام الله عزوجل بالتصرف عبثًا.

على كلٍّ؛ فقد تم خَلْقُ العباد لإطاعة الله التي تنفعهم وحدهم، وذلك يتطلب أن تكون الإطاعة غرضًا مقصودًا بالنسبة إليهم.

## من عَرَفَ نَفْسَه فقدْ عرفَ ربَّه

وزِد على ذلك أن العقل خُلِقَ ليعرف حقيقة كل شيء، كما أُوْدِعَ الإنسانُ القدرةَ والقوةَ ليعمل وفق ما يوجِّهُه إليه عقلُه. ومن البديهي أن أول من يستحق أن نعرفه ونعلمه إنما

هو الرب سبحانه وتعالى. وذلك لأن الحقائق كلها إنما تنوَّرت هذا التنوُّرَ لأجله، مثل الحرارة التي تصدر عن الشمس، كما سيظهر ذلك إن شاء الله. ومن المعلوم أن الحرارة ليست إلا شعاعًا من الشمس؛ ولكن بما أن كل أحد يعرف نفسه قبل كل شيء، وأن حقيقته عكس منه سبحانه وتعالى؛ تتوقف معرفة المرء نفسه وعلمه بها على معرفته سبحانه وتعالى وعلمه.

## اقتضاء طبيعي

غير أن معرفته سبحانه وتعالى تقتضي – على أقل تقدير – أن يعتقد الإنسان أنه سبحانه وتعالى غنيٌّ لا يحتاج لشيء، وأنه – الإنسان – فقير إليه تعالى وَتَقَدَّسَ. وإذا كان الأمر كذلك فَمِمَّا لابدّ منه أن تكون إطاعته وامتثال أمره اقتضاءً طبيعيًا ومطلبًا قلبيا. وكل أمر تقتصر عليه إطاعته سبحانه وتعالى – اقتصار – طبخ الخبز على النار والحطب والإناء المخصص لعجن الدقيق والموقد – يُعَدُّ ضمن الإطاعة، وليس لنا أن نُسْقِطَ ذلك الأمر – مثل أشياء ذُكِرَتْ آنفًا توضع في حساب إعداد الخبز – من قائمة إطاعته تعالى.

وأما الأمور الأخرى التي تكون سوى ذلك فهي تُعَدُّ خارجة عن نطاق هذا الغرض، وتُعْتَبَرُ بالنسبة إلى الإنسان نوعًا من سوء الحظ؛ لأجل تخلفها عن الهدف المنشود الذي سبق ذكره.

## هناك أمران يتسببان في الضلالة

إلاّ أنه قد يؤدي إلى سوء الحظّ هذا الخطأ، وقد يؤدي إلى ذلك هوى النفس. فيلزمني انطلاقا من النصح للإنسانية الذي سبقت الإشارة إليه أن أنبّه المخطئين على أخطائهم، وأن أذكر لمسْتَعْبَدي الأهواء – ظنّا مني أنه ابْتُلِئ بما ابتُلِيْتُ به من المرض – فضائل الآخرة، كما أرجوهم أن ينصحوا لي أيضًا في هذا الصدد؛ ولكن بما أن المخطئين مثلهم كمثل مسافر ضلّ الطريق المؤدي به إلى مدينة يقصدها وسلك طريقا آخر. أما الذين غلبتهم الأهواء فمثلهم مثل رجل يسلك الشارع الذاهب إلى مدينة يقصدها، غير أن الرياح العاتية لا تسمح له بأن يسلكها إلاّ بصعوبة، فلنا أن نتأسف على من أخطأ الطريق أكثر ممن تملكتهم الأهواء. فإنه كما لا يُرجَي أن يصل المسافر الذي ترك الشارع الذاهب إلى المدينة

التي يقصدها وسلك شارعًا آخر مهما كانَ مسرعًا في السير، كذلك لا يوجد هناك أمل في أن يفلح مَن ترك الصراط الإلهي السويّ عن خطأ، وانتهج طريقًا آخر، مهما كان عابدًا وزاهدًا.

ولكن الذين يسلكون الصراط الذي يذهب إلى الله تعالى، ولكن أمواج الأهواء تجعلهم لا يسيرون إلاّ بصعوبة يُرجى فيهم أنهم سيصلون يومًا ما، ولو بشق الأنفس، ومتهافتين ومتذوقين لحلو الحياة ومرها إلى مدينة يريدونها، ألا ! وهي الجنة، وإن تعرَّضوا خلال سفرهم لمشاق النزع والعذاب المتنوعة. فمثلهم مثل مسافر مشار إليه يسقط على الأرض لأجل ضغط الرياح المناوئة؛ فيصاب بجروح ولا يصل للمنزل سالمًا.

## الإسلامُ دِينُ النجاةِ

فأقول لكم جميعًا انطلاقا من النصح لكم: إنه ليس هناك في الدنيا دين ما عدا الإسلام بقي في معزِلٍ عن أخطاء فادحة في المعتقدات تسبّب الحيد عن الصراط السوي الذي يُعَبَّر عنه بالصراط المستقيم. وإذا أمعن أحد من غير

المسلمين أيضًا مجانبًا للعصبية الدينية، لوجد هذا الدين الحنيف هو الطريق الوحيد للوصول إلى مبتغاهم الحقيقي. أما الذين لاتُهِمُّهم الآخرة ولا ترغب قلوبهم في الجنة التي هي بمنزلة المدينة المقصودة والمنزل المطلوب لكل أحد من العامة والخاصة، فإنهم سَيُعَارِضُوْنَ نُصْحَ هذا الحقير، بل إنهم سيتصدون لتفنيد الحق ويهلكون أنفسهم بأيديهم.

## ركنان أساسيان للإسلام

على كلٍ فينبغي للعاقل أن يأمل في ذوي العقول أنهم سيعترفون بالحق؛ فأقول: إن أصول هذا الدين في غاية من النزاهة، وإن أساسه على أمرين: أولهما التوحيد الذي هو خلاصة لكلمة «لا إله إلاّ الله» وثانيهما النبوَّة التي هي خلاصة لكلمة «محمد رسول الله» وأما ما عداهما فهو متفرع منهما. فآخذ أولاً في شرح الركن الأول منهما، وسأذكر الركن الثاني بعد أن أنتهى من ذكر الأول.

***

# الركن الأول: التوحيد

## وجودُه سُبحانَه وتَعالى

أيها الحضور في الاحتفال ! استمعوا وعوا وبلّغوا من لم يحضره أنَّ وجودنا ووجودكم ليس له دوام؛ فإنه لم يكن منذ الأزل ولا يستمِرُّ إلى الأبد؛ فقد مضى زمانٌ كنا معدومين فيه، وسوف يأتي زمانٌ يُقضَى علينا فيه بالزوال. وهذا الزوال دليل صارخ على أن وجودنا الذي نحظى به لم يأتِ من عند أنفسنا، بل إنه قد استُعِير، وأريد بذلك أن وجودنا يُشبه نورَ الأرض وحرارةَ الماء في أنهما ليسا مثل نور الشمس وحرارة النار.

غير أن نور الأرض وحرارة الماء، كما أنهما فيض من النار وعطاء من الشمس فكذلك وجودنا لابد من أن يكون فيضا وعطاءً من ذاتٍ تحظى بوجودها بنفسها غير محتاجة إلى آخر. فكما أن الشمس والنار ينتهي إليهما النور والحرارة، وأنه لا يقال: إن هناك في دنيا الأسباب شيئًا آخر يفوق

الشمسَ والنارَ جَعَلهما متنورّةً وحارَّةً، وكذلك فإن وجودنا سينتهي إلى من أعارنا الوجود، ولا يمكن أن يقال: إن هناك موجودًا آخر أفاض عليه الوجود. وهو الذي ندعوه بـ «الله» و «مالك الملك».

## لن ينفصل الوجود عن ذاته تعالى

فإذا ظهر أن وجوده سبحانه من لدنه وحده، وأنه لم يُفِضه عليه غيره، فمن البديهي أن يلازمه الوجود ملازمةَ النور للشمس والحرارة للنار. فلن يمكن أن توجد النار ولا توجد معها الحرارة، أو أن توجد الشمس وينفصل عنها النور. وكذلك لن يمكن أن تُوجد ذاته سبحانه وتعالى دون وجودها. فقد يخطئ من يتصور ذاته دون وجوده، فإنه لن تُتصَوَّرَ ذاته دونما وجود. وهذا الوجود والموجود نعبر عنه بالله، فلزم أن تتحقق فيما بين ذاته ووجوده نسبة تتوفر في عدد «الاثنين» وكونهما زوجًا. فكما أن نسبة الزوجيّة لن تفارق عدد الاثنين في أية حالٍ وفي أي وقت من الأوقات لا في الذهن ولا في الخارج، كذلك لن تنفصل ذاته تعاليعن وجوده. وذلك لأن نسبة الزوجية في عدد «الاثنين» تختلف

عن نسبة في الشيء الذي يُعَدُّ بالاثنين، فكذلك إن ذاته تعالى ووجوده ليسا مثل وجود خَلْقه. فإن زوجية المعدودات ووجود الخلق كليهما من عطاء غيرهما يصلحان للزوال والانفصال، ولكن ازدواجية عدد الاثنين ووجود ذاته تعالى أصيلان يدومان ويبقيان دائمًا لن يمكن أن يزول الوجود عنه تعالى أو ينفصل.

## شبهة والرد عليها

وأما كسوف الشمس وانطفاء النار أو انعدام الشمس والنار لا يعارض ماندّعيه، فإن نور الشمس يحتجب عند ما تنكسف مثلما يحول جدارٌ دون مصباح بتمامه أو بثلثه. وإن نور الشمس لا ينفصل عنها في الكسوف وإنما يختفي ويغيب عن الأنظار. وأما إذا انطفأ السراج فلا ينفصل النور عنه وإنما تنعدم النار نفسها؛ فتنعدم الحرارة والنور معها. ومن الظاهر أن ذلك ليس من المفارقة والخيانة في شيء وإنما هي ذروة المصاحبة والمعية.

نعم إن هناك فرقًا وهو أن هذه المصاحبة ليست موجودة مشاهدةً، فإن الوجود لن يرافق شيئا في العدم،

وإنما يمكن ذلك عندما انفصل الوجود منه؛ ولذلك وجب أن يكون سبحانه وتعالى – لأن وجوده أصل غير صالح للزوال وأن وجود الأشياء كلها قد تفرع من وجوده وجاء عطاء منه تعالى – أزليًّا أبديًّا، وأنه لم يكن معدوما قط وسوف لا ينعدم أبدًا. ووجب على ذلك أن نعترف بأنه تعالى ليس في حاجة في ذاته ووجوده إلى غيره، وأنه يحتاج كل شيء في وجوده إليه. فظهر أن قدرته أيضا أزلية وأبدية، وأما غيره فيكون فقره وعجزه أصليًا وحقيقيًا.

والذي دلّ عليه ما ألقيته من حديث أن وجودنا ليس من عند أنفسنا، وإنما هو صورة وانعكاس من الله سبحانه تعالى الذي هو غنيّ عن غيره في وجوده. وإليكم كلمةً تدلّ على أنه واحد أحد.

## وحدانيّة اللّه تعالى

اُنظروا ! إنه إذاكانت فتحاتٌ عديدةٌ تختلف في صورها فإن النّور الذي يدخل منها يكون متحدًا، وكذلك تمتاز تلك الصور – صور الفتحات – أيضًا عن غيرها فيما بينها وعن النور الداخل منها أيضًا، كما أن النور أيضًا يتميّز في حد ذاته

عن كل صورة من هذه الصور، أضيفوا إلى ذلك أن كـل شيء في العالم له حقيقة مغايرة عن حقيقة الآخر رغم أن الوجود في نفسه يختلف عن كل حقيقة، ولذلك فإن الشمس الداخلة من الفتحاتِ كما أن فيها شيئين: النور والـصورة، ولكـن النـور لا يوجد فيه الشيئان، فكذلك الخلق يوجد فيـه شـيئان: الوجـود وحقيقة الخلـق، غـير أن الوجـود نفـسه لا يوجـد فيـه هـذان الشيئان فأنّى يمكن أن يَـسَعَ الموجـودُ الأصـلي الـذي أفـاض الوجود على الخلق جميعًا التعدد والثنويّة.

وذلك لأن الحرارة كما أنها لن تصدر عن شيء حـارّ بذاتـه وعن شيء حارّ بالغير، وأن البرودة لن تشعّ عن شيء باردِ بذاته وعن بارد بغيره معًا. ولذلك فلا يَسَعُ المصدر الأصلي للحـرارة والبرودة تعددًا يعارض وحدةَ الحرارة والـبرودة. وكـذلك لـن يصدر الوجود عن موجود أصلي وغير أصليّ، فلن يتحقق تَعَدُّدٌ في الوجود يخالف الوحدة بالنسبة إلى الموجود الأصلي أيضًا.

## الوجودُ وبساطتُه

ومن الواضح البين أنه لايوجد أي نوع مـن تركيـب في الوجود. فإن المركّب كما أنه ينتهـي في آخـر أمـره إلى أجـزاء

تأبى أن تقبل التركيب، فكذلك كل شيء ينتهي إلى الوجود الذي لا يحتمل التركيب والتجزئة.

وقد ظهر بما تحدثتُ من قبل أن الموجود الأصليّ – الله عز وعلا – واحد أحد، ويُرَادُ بذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يوجد فيه أي تركيب، فالآن أذكر لكم وحدانيته سبحانه وتعالى التي يراد بها أنه ليس له مثيل ولا عديل، وأنه ليس كمثله شيء.

## الدليل الأول على وحدانية الله

أيها المستمعون ! إن مما يعرفه كل منا جيّدًا أن حجم وجودنا لا يسع أحدًا سواه. أعني بذلك أنَّ المكان الذي يشغله وجودنا لا يسع وجود أحدٍ سوانا، فإذا كان وجودنا الضعيف لا يسمح لأحد بأن يدخل حجمه ومكانه، فماذا ترى عن الوجود القوي الذي يملكه الموجود الأصلي، هل يأذن لغيره أن يتسلل إليه؟ ومن المعلوم أن حيّز الوجود لا يساويه حيّز البشرية ولا الحيوانية ولا الجسمية ولا الجوهرية. وهذا هو السبب في أنه يجوز لنا أن نقول عن ذلك كله بأنه موجود، ولكنه لن يجوز أن نُعبِّر عن الموجودات

كلها بأنها إنسان، أم حيوان، أم جسم، أم جوهر. وذلك يدلّ في وضوح على أن حجم الوجود أوسع مكانًا من الأحجام كلها، وعلى أنه ليس هناك حيز ولا حجم يفوقه ويعلوه، وذلك يعني أنه ليس هناك معنًى يتضمن الوجود وغيره كليهما.

فكما يلزم أن نعترف بأن سفينةً لا يسع حيِّزَهَا سفينةٌ أخرى ولا حركةَ سفينة غيرها كذلك فإن حيّز الموجود الأصلي – الذي يُشْبِهُ السفينة الجارية – وإن حيز العطاء الوجود العالمي – الذي بمنزلة حركة السفينة – لن يَسَعَ موجودًا أصليًا آخر.

## الدليل الثاني على الوحدانية

وعلاوة على ذلك نقول: إذا كان هناك موجودان أصليان فصاعدًا لزم أن يتميز كل منهما عن الآخر، وأن يختلف كل منهما عن غيره، وبالرغم من ذلك يجب أن يتحدا في الوجود؛ وذلك لأن إطلاق كلمة الموجود على كل منهما يشهد بأن الوجود واحد يشترك فيهما. فإنه إذا لم يكن مشتركًا لما جاز أن تُطلقَ كلمة واحدة من جهة معنى واحدٍ عليهما جميعا.

وإذا كان كذلك فلزم أن تكون الأمور التي يتحقق بها الامتياز مختلفةً عن الوجود. فإنه إذا وُجِدَ التعدد تعددت الأمور المميزة أيضًا، ولكن هذا التميز لن يتحقق إلاّ بأن توجد فيهما أمور ما عدا الوجود المشترك.

ولن يمكن أن يحظى بالوجود أحد منهما وحده، وذلك لأن الوجود وصف ومعنى، والوصف لا يتحقق إلاّ إذا تحقق الموصوف بذلك. أضف إلى ذلك أنه إذا كان الوجود وحده في جانب تحقق شعاع وعطاء وفيض من نفس الوجود في جانب آخر، الأمر الذي يؤكد الوحدة والوحدانية، وإلاّ لزم التعدد في الوجود الذي كفاه أن يكون باطلاً أنه يوجد فيهما معنى واحدٌ.

## يستحيل أن تكون علتان لمعلول واحد

غير أن هذين الأمرين: الوجود والموجود لن يكونا علتين للوجود المشترك، وذلك لأن المعلول يكون انعكاسا عن العلّة، ومن المعلوم أنه يستحيل أن يكون الشيء الواحد انعكاساً عن شيئين مختلفين.

وخلاصة الحديث أنه يلزم أن يتميز الشيئان فيما بينهما

كما يتميزان عن الوجود المشترك أيضًا، فلا يوجد فيما بين الوجود والشيء – الذين يُشْبِهان الأرض والنور – اتصال بذاته يحول دون الانفصال. فكما أنهما ينفصل أحدهما عن الآخر كذلك أمكنهما أن يتصل أحدهما بالآخر. ومن البديهي أن الأمر إذا كان كذلك لذهب معنى الموجود الأصلي أدراج الرياح ولاضطُرِرنا لأن نقول: إن هناك موجودًا آخر يفوقهما يحظي بوجود أصليّ.

## اللّهُ لايُمَاثِلُه شيء في داخل حجم الوجود ولا في خارجه

إن الوجود معنى واحد فلن يكون مصدره إلاّ واحدًا. ولا يَسَعُ حجم وجوده تعالى أحدًا غيره، فإن حجم وجودنا هو الآخر لا يسع غيره، ومع أن وجودنا أضعف من وجوده تعالى ضُعفَ حرارة الشمس بالنسبة إلى النور الذي فيها. كما لا يمكن أن يوجد مثيل للوجود الأصلي خارج حجم الوجود؛ فإن حجم الوجود يفوق كل شيء وليس هناك حجم آخر في خارجه فَأَنّى للغير أن يوجد؟

## الوجود غير محدود وغير متناهٍ بكل نوع

بل يبدو إذا كنا نعقل ونتمسك بجانب القسط والعدل أن

الوجود لا يحده حدّ ولا يحيط به شيء وأنه لا نهاية له، فإن النهاية تعني أنها توجد إلى مكان ولا توجد في ما هو أبعد منه. وذلك لن يُتَصوَّر إلاّ بأن نقول: إن هناك شيئًا آخر يتجاوز ذلك الحد والنهاية، وبأن نسلِّم أنه يفوقه مطلق لا يتقيد بقيد. ولكن إذا لم يكن يوجد مطلق ولا غير محدود يفوق الموجود فلابد لنا من أن نسلم أن الوجود نفسه مطلق، وأنه غير محدود ولا يفوقه مطلق ولا شيء غير محدود، مما يؤدي على كره منّا إلى أنه يلزم أن يكون الوجود غير متناه ولا محدود ومطلقًا من جميع الأنواع. وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هناك شيء يتعداه ويتجاوزه، فإنه لا تُتَصوَّر نهاية لشيء غير متناهٍ؛ فظهر أن مبدأ الوجود لن يمكن إلا أن يكون واحدًا، وهو الله سبحانه وتعالى، وأن كل ماعداه من أشياء وخلائق فإن وجودها يكون عطاءً منه وصادراعنه.

## اللّه ليس له أب ولا ابن ولا أخ

وإذا ثبت أن الوجود الأصلى هو الله سبحانه وتعالى فمن اللازم أن لا يكون له أب ولا ابن ولا أخ شقيق. فإن ذلك لن يمكن تحقّقه إلاّ إذا كان هناك تعدد بالرغم من

وجود الاتحاد في النوع؛ فلزم أن يشارك الله تعالى في ألوهيته وربوبيته أبوه وابنه وأخوه مثلما يشارك الإنسان أبوه وابنه وأخوه في بشريته مع اختلافهم شخصيًّا. وقد ثبت آنفا أن الله تعالى يستحيل التعدد فيه؛ فمن البديهي أن يستحيل أن يكون له سبحانه وتعالى أب وأم أو أخ وابن.

## من المجاز إطلاق كلمة الأب على اللّه تعالى وإطلاق كلمة ابن اللّه على العبد

نعم ! كما يسمّي أبناءُ الرعية الملوك والأمراء آباء أو أمهات لهم نظرًا إلى عنايتهم الفائقة بأمورهم، ويدعوهم السلاطين بـ كلمة «الأبناء» فكذلك إذا كان هناك نبيّ أو وليّ أو عبد صالح أطلق على الله تعالى كلمة الأب أو سمى الله تعالى رجالاً من عباده الصالحين أمثال الأنبياء «أبناء» له فذلك لا يعني إلا أنه تعالى ينظر إليهم نظرة رحمة وينعم عليهم ويرضى عنهم. ومن الخطأ أن نعتقد أن الله أب لأحد في معناه الحقيقي أو أنّ له ابنًا في معناه الأصلي[1].

(١) عرَّبَ الكتابَ من مستَهلّه إلى هذه السطور الأستاذ عبد الرشيد القاسمي البستوي أستاذ بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند سابقاً.

## لا تُستخدم الكلماتُ المُورِّطةُ في الخطأ

تأمّلوا: إن سَمِعَ رجل ملِكاً يدعو رعيته بلفظة «الابن» أو سمع أفرادَ الرعية يدعون ملكاً بلفظة «الأب» فحملهما على معناهما الحقيقي – بالرغم من القرائن والدلائل التي تأبى المعنى الحقيقي – واعتقد – بناءً على ذلك – أفرادَالرعية أولياءَ العهد وورثَة العرش والحكم، وأعارهم من الإجلال والتكريم ما يليق بشأنهم؛ فقد سوّى بين الرعية والملك وبين العبيد والسيد؛ فلا ريب أنه يكون موضعَ غضبٍ من الملك، وتكون مغبّةُ هذا الاعتقاد الخاطئ أن ينال هذا الرجل عقابَه في جانبٍ، ويُغيَّر لقبُ «الابن» للرعية في جانب آخر؛ حتى لا يُعاوِدَ أحد هذه الفَعْلَة الشَّنعاء.

إلا أنّ بين الملك وأفراد الرعية بونًا بعيدًا وفرقاً شاسعاً؛ فالملك يمتلك مقاليد الحكم، ويجلس على العرش، ويلبس لباسًا فاخرًا، ويضع على رأسه تاجًا مُرَصَّعًا، والوزراء والأمراء ماثلون بين يديه. وأما أفراد الرعية فأذلاء صاغرون، ليس عليهم ملابس فاخرة، ولالهم سَحَنَات حسنة، لا يُفسَحُ لهم إلا في مواطئ الأقدام بكل ذلٍّ وهوان.

فهذا النوع من التفاوت الملحوظ يكفي للناظرين للتعرّف على التفاوت في المراتب؛ مع أنّ الملك والرعية يشتركان في جميع الصفات النوعية والإمكانية، مما ليس يُسْتَبْعَدُ أن يُوْهِم أحدًا – ولو مرةً – القرابةَ النسبيةَ بين الملك والرعية. وأما العبدُ والله عزوجلَّ فلا اشتراكَ بينهمافي شيء فضلاً عن أن يكون في الألوهية، وأين الثَّرى من الثُّريا؟!

فمن الخطأ الفاحش جدًّا أن يعتقد أحدٌ عبدًا – بسبب الكلمات المذكورة – إلهًا أو ابنه. ولا شك أنّ هذا الاعتقاد الخاطئ يُسَبِّبُ لصاحبه العذابَ ولأولياء الله سلبَ هذا اللقب.

## الدليل الثاني للرد على البُنُوَّة

وأَضِفْ إلى ذلك أنَّ الألوهية والاحتياج يتعارضان على طول الخط وعرضه؛ فالله عزوجل هو الذي له وجود لذاته، وبديهيّ أنّ من له وجود لذاته يستجمع المحامد كلها؛ لأن جميع المحامد كالعلم والقدرة والجمال والجلال وما إلى ذلك تابعة للوجود؛ فإنّ الشيء المعدوم لا يتصف بالعلم والقدرة، وهل يمكن – مثلاً – ألاَّ يكون زيد موجودًا،

ويكونَ عالمًا؟ مما يدل دلالةً صارخةً على أنّ الصفات هي تابعة للوجود، وإلا أمكنَ تَوَفُّر الصفاتِ في الموصوف قبل وجوده؛ على هذا فيجب الاعتراف بأنّ الله عزوجل يستجمع المحامد كلها، ولا يحتاج إلى شيء؛ لأنّ الاحتياج يعني أنّ صاحبه ينقصه ما ترغب فيه نفسه، وهل هناك شيء سوى الفضيلة والمحمدة ترغب فيه النفس؟!

## الله عزّوجلَّ منزَّهٌ عن كل عيب، ومستجمع لصفات الكمال:

وما ذكرته آنفًا، بينما دلّ على أنَّ الله عزَّوجلَّ لا يحتاج إلى أحد في شيء، إذ دلّ على أنّه منزّه عن كل عيب؛ فالعيب يعني أنّ صاحبه تنقصه فضيلة، ودلّ – كذلك – على أنّ الموجودات – سوى الله عزّوجلّ – كلها تحتاج إلى الله في كل شيء؛ لأنّها إذا احتاجت إلى الله في الوجود، فاحتياجها إليه في الصفات الأخرى أولى؛ لأن كل فضيلة – سوى الوجود – هي صفة تابعة للوجود.

## الجمادات والنباتات تحظى بالشعور والإدراك

وعلى هذا فيجب الاعتراف – كذلك – بأنّ كل شيء

يحظى بقسط – قليل أو كثير – من العلم والفهم والشعور والحركة؛ لأنّه لما تقرر أن العلم وما إليه، صفات تابعة للوجود، فحيثما حصل الوجود حصلت معه هذه الصفات؛ لأنّ الصفات الأصلية لا تنفك عن موصوفها، كما هو المُشاهَد، إلا أنه من المسلَّم أنّ المرآة والحجر لا يتساويان – لما بينهما من التفاوت في القابلية – في الاقتباس من نور الشمس، مع أنها تفيض النور دائمًا وبشكل مستمر، كذلك فبناءً على التفاوت في القابلية ليس شيء أكثر قابليةً للعلم من الإنسان.

## الإنسان المحتاجُ كلَّ الاحتياج

## يستحيل أن يكون إلهًا أو ابنه:

لئن كان الإنسان أكثر قابليةً للكمال فهو أكثر شيء احتياجًا كذلك، فمثلاً: لاحظ أن الأرض لا تحتاج – فيما يبدو – إلى شيء سوى الله عزَّوجلَّ، وأما النباتات فهي تحتاج إلى الأرض والماء والهواء والشمس. ثم إنّ الحيوانات تحتاج – بالإضافة إلى ما ذُكِرَ – إلى الأكل والشرب والتنفس، وأما الإنسان فهو يحتاج – علاوةً على ما سبق –

إلى الملبس، والمسكن، والمركب، والعز والكرامة، وإلى الزراعة، والماشية، والنقود، والذهب والفضَّة، والمعادن؛ مما يؤكد أنه محتاج كلَّ الاحتياج؛ لذلك فما أكبَرَ الضَّلالَ وما أفدَحَ الخطأ أن يُعتَقَدَ أن فردًا من البشر إله!!

دَع هذه الاحتياجات كلها، وانظر ما به من البول والبراز، والبزاق والمخاط وما إلى ذلك من الأوساخ والأقذار. ومع هذا فلن يجرُؤ أن يعتقد العبدَ إلهًا إلا مَن لا يَمتُّون إلى الله بصلة، ولا يعرفون قدره، وا أسفاه !! فإن وُلِدَ لهم ابن على صورة قرد أو خنزير يحزنون حزنًا لا يوصف، مع أنّ كُلاّ من القرد والخنزير، والإنسان يشترك – على الأقل – في المخلوقية والأكل والشرب والبول والبراز، وأما هم فيجعلون لله ابنًا ليس له أيُّ صلة به. أرأيتم – أيها النصارى – من يحتاج إلى الأكل والشرب ويُغلَبُ بالمقتضيات الطبيعية القاسرة من البول والبراز هل بينه وبين الله من قاسم مشترك؟ فتعتقدوه إلهاً أو ابنه. توبوا الى الله واخشو سخطه ! فما أشدّ ذلك إساءةَ أدب إلى الله الغني المستغني من قِبَلِ المحتاجين الفقراء!!

## يستحيل أن يكون عيسى عليه السلام إلهًا أو ابنه

إنّ عيسى عليه السلام الذي تعتقدونه – أيها النصارى – إلهًا أو ابنه كانَ أوفر حظًا من مخايل العبودية ودلائلها منَّا نحن الناس؛ فعِلاوةً على ما أسلفت من المقتضيات الطبيعية القاسرة من البول والبراز إنَّ زهدَه وورعَه وتقواه وخشيته وطاعته وعبادته التي كان يعيش فيها ليلَ نهارَ، كلُّ ذلك يدل على أنه لم تكن فيه شائبة من الألوهية.

إن فرعون قد تألَّه وتنكَّر بالإله، وأما عيسى عليه السلام فلم يدّع الألوهية أصلاً، فإن حلَّ غضب من الله على أتباع فرعون الذين كانوا قد اتخذوه إلههم؛ فكيف ينجو من غضب الله أتباعُ عيسى عليه السلام الذين يعتقدونه إلهاً.

إن عيسى عليه السلام كانت تتفجّر العبودية من جوانبه، فلم يكن إلا مُقِرًّا بها، ولم يكن إلاّ ممارسًا لأعمالها؛ فإن أخفى عبوديته، وادّعى الألوهية، وطوى كشحه عن الزهد والتقوى والعبادة، كان من الممكن أن يعتقده – بسبب المعجزات الصادرة عنه – عاقل أو جاهل إلهًا، إلا أنه من دواعي الأسف أنّ الله عزَّوجل رزقهم – النصارى – العقول والأفهام؛ فلا

يرون في عيسى عليه السلام إلا مخايل العبودية ودلائلها ومع هذا يعتقدونه إلهاً، ولا ينتهون ! ما هذا السكر الذي عطَّلَ عقولهم وأفهامهم؟! فهل رزقهم الله العقول والأفهام للحصول على متاع الحياة الدنيا القليل فحسب؟ كلاَّ !!، إنَّ العقل ذلك المصباح المنير غير الدخاني كان قد حباه الله إياهم ليعرفوا طريقَ الدين بنجاده ووهاده. وما فاتكم شيء حتى الآن أيها النصارى إذا انتهيتم وتبتم إلى الله ! ولا تجعلوا بممارسة هذه الإساءات إلى الله عاقبة أمركم خسرًا !!

## عقيدة التثليث والردُّ عليها

فما أشدَّ الظلمَ أنكم تُوحِّدون الله الأحد وتُثَلِّثونه في وقتٍ واحد ومعًا حقيقةً لا مجازًا؛ فيقول لكم هذا العبد الأحقر أيها النصارى ! صادرًا عن الرحمة بالإنسانية التي تجمع بينه وبينكم: إنَّ مثل هذه المستحيلات في أساسيات الدين تكفي دليلاً على فساد ذلك الدين وبطلانه عند أولي الألباب.

## مكانة العقيدة في الدين

أيها الحضور ! إنَّ العقيدة نوع من الخبر، يعتمد صدق الدين وصحته على صدقه وصحته، كما يعتمد كذب الدين

وفساده على كذبه وفساده؛ لأن العبادات والطقوس الدينية كلها تنطلق من هذه العقيدة، أرأيتم من يُقِرُّ عقلُه صحةَ وصدقَ توحيد شيء واحد وتثليثه حقيقةً؛ فهذا خطأ جَلَلٌ يدركه حتى الصبيان والشيوخ بداهةً.

إنَّ العقلَ يشهد على استحالة اجتماع التوحيد والتثليث شهادتَه على إشراق الشمس، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ واحد من الناس يلاحظ بعينه إشراق الشمس، كذلك الاستحالة المذكورة واضحة مشرقة عند العقل. ثم إنَّ الاجتماع المذكور لا يشهد العقل على صحته بطريق مباشر ولا غير مباشر، وبدليل عقلي: لا قوي ولا ضعيف؛ مما يُثبت صحة التوحيد والتثليث كليهما؛ فإن كانت فقرة من نصّ الإنجيل تدل على صحتهما تُخَطَّأ تلك الفقرة، ولا تُخَطَّأ شهادةُ العقل.

## لا يُعتَمدُ على دليل عند بداهة العقل

وجملة القول أنَّ ما ثبت بالدليل – سواء كان عقليًّا أو نقليًا – هو بمنزلة "المسموع" وما ثبتَ بداهةً دونما دليل هو بمنزلة "المرئي" وطبيعيّ أنَّ المسموع لن يبلغَ مبلغ المرئي.

افترضوا – مثلا – أنَّ رجلاً صَعِدَ تلَّةً مرتفعةً ينظر بأُمِّ

عينيه إلى الشمس طالعةً، بعيدةً عن الأفق قليلاً، وهناك رجلٌ آخر جلسَ وراء جدار، ينظر إلى ساعته ويقول: إنَّها قد غربت الشمس. فالذي ينظر بأم عينيه إلى الشمس يقول عن ثقةٍ ويقين: إنّ هذه الساعة غير مضبوطة ضبطًا صحيحًا.

فالساعة إنما صُنِعَتْ لمعرفة الوقت، إلا أنها لا يُعْتَمَدُ عليها مقابلَ الناظر بأم عينيه؛ لأنّ الساعة يمكن الخطأ في ضبطها، فكذلك الإنجيل قد أُنزِلَ لهداية الناس، إلا أنه لا يعتمد عليه مقابلَ العقل السليم؛ وذلك أنّ الإنجيل يمكن وقوع الخطأ في نقله. وكما أنّ العين – إذا كانت صحيحةً – لا تخطئ في إدراكها، وإدراكُها أن تنظر إلى "المُشاهَدَات" دونما واسطةٍ، ولا تكون هناك حاجة في إدراك "المشاهدات" إلى السمع. كذلك فالعقل السليم لا يخطئ في إدراكه؛ ولكن إدراكه أن يعرفَ "المعقولات" دونما واسطة الأدلة والبراهين، ولا يحتاجَ في معرفة "المعقولات" إلى الاستدلال.

## فقرة التثليث مدسوسة في الإنجيل

ومن الطريف أنّ الفقرة الواردة في الإنجيل التي تدل

على التثليث هي مدسوسة فيه عند المسيحيين باعتراف علمائهم أنفسهم؛ فقد صرَّح كبار القساوسة الذين عُنُوا بطبع الإنجيل في مدينة «ميرزا فور» عام ١٨٧٠م، صرَّحوا على هامشه بأنّ هذه الفقرةَ إضافة جديدة إلى الإنجيل، لا تُوجَدُ في نُسخِه القديمة؛ ولكنهم مع ذلك يتعصَّبون لهذه العقيدة ويعَضُّون عليها بالنواجذ.

## المسيحيون الصادقون

أيها السادة المسيحيون! ليس علينا إلا البلاغ ومحاولة الإصلاح، وعليكم أن تفهموا ما يجب فهمه، فادعوا الله أن يُحِقَّ الحق، ويُبْطِلَ الباطلَ !! ولا يُغْضِبُكم إذا أصْدُقُكم أنَّنَا نحن المسيحيون في الواقع؛ لأننا نعتقد عيسى عليه السلام عبدًا لله حسَبَ أقواله وأفعاله، ولا نعتقده إلهاً أو ابنه، ونُوَحِّدُ الله ولا نُثَلِّثُه.

***

# أفعالُ الله وصفاته

## أفعال الله تَصْدُرعنه عن اختيارٍ وإرادةٍ لاعن قسرٍ واضطرارٍ

أما بعدُ، فأقول: إنَّ الله عزوجل هو أزليُّ الجلال وأبديُّه، وهو صانع الكون المحي والمميت، أفعالُـهُ تـصدر عنـه عـن إرادة واختيـار، لا عـن قـسر واضـطرار كحركـة حجـر إذا رميتَ به يقع – لأجل رميك – على بعدٍ، وإذا لم تَرمِ به بقـيَ في موضـعه. ولـو فرضـنا أنَّ أفعـال الله عزَّوجـلَّ ليـست اختياريةً لكان معنى ذلك أنَّ الله يحتاج في حركتـه وسـكونه إلى غيره، وأما غيره فلا يحتاج إليه.

ومعلومٌ أنّ ما تتمتع به المخلوقات من العلم والقـدرة، هو مما أفاضـه الله عليهـا. ومثـالُ اضـطرار الله إلى غـيره أن يُقال: إنّ الركاب في السفينة متحرّكـون، والـسفينة تتحـرك بفضل حركتهم، أو إنّ الماءَ الحارَّ تُسَخِّنُه النار، وأمـا حـرارةُ النار فهي بفضل حرارة الماء.

وبالجملـة يـستحيل أن يكـون الله – عـلى وحدانيتـه وخالقيته – محتاجًا إلى غـيره ومُكرَهـا أمامَـه، ولـيس هنـاك سوى الله عزوجل إلاَّ هذا الكونُ وما فيه مـن المخلوقـات؛

فلو كان الله مُكرهًا ومحتاجًا إليه لانقلب الأمر رأسًا على عقب؛ لذلك فيجب الاعتراف بأن الله صنع ما صنع، ويصنع ما يصنع عن اختيار وإرادة؛ لأنَّ الأفعال إنما تنقسم إلى قسمين، الأول: اختياريّة وهي تصدر عن صاحبها عن إرادة واختيار. والثاني: اضطرارية وهي تصدر عن صاحبها عن قسرٍ وإكراهٍ.

## أفعالُ اللّه ليست قديمةً كصفاته

ثم إنّ أفعال الله عزوجل ليست ضروريّةً ولاواجبةً كصفاته؛ فلو كانت أفعاله ضروريّةً أو واجبةً لكانت نتائجها قديمةً، ومن المعلوم أنّ نتائج أفعاله هي هذه المخلوقات والحوادث التي يتتابع وقوعها، فإن كانت أفعاله قديمةً كانت مفعولاته قديمةً كذلك.

وأَضِفْ إلى ذلك أنّ الفعل نوع من الحركة، والحركةُ تتجدد وتنشأ لحظةً فلحظةً، وهي لا تحتمل القِدَمَ أصلاً؛ فلا تكون الأفعال واجبةً.

## القدرُوإثباته

وأفعاله تعالى إمّا اختياريّة، ولا يخفى أنّ الأفعال

الاختيارية يتم تخطيطُها قبل القيام بها، كتصميم المنـزل قبـل بنائه، وتقدير الطعـام قبـل إعـداده، وتفـصيل الثـوب قبـل خياطته؛ لذا وجب أن الله كل ما صنع وما يـصنعه مـستقبلاً له عنده تخطيطُه، وتقـديرُه، ونموذجُـه؛ وإلاَّ لـزم أن تكـون أفعالُه كحركات الأحجار والأشـجار وسـكناتها، تعـالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فحينئذ تدخُّلُ بعض الأسباب في بعـض الأعـمال يكـون بمثابة تَدَخّل البَنَّاء والعُـمَّال في بنـاء المنـزل مـع تـصميمه، أو تدَخُّل النَّار في طبخ الطعام مع تعيين قدره وكيفيـة لذّاتـه؛ بـل إذا فَكَّرتُم علمتم أنّ الأسباب التي تبـدو دخيلـةً في الأعـمال، هي من أجزاء تصميم الكون، وإن كانت تبدو خارجةً بالنسبة إلى التصميم. هذا ما يُسَمَّى بالقدر عند أهل الإسلام.

القدر هو التقدير لغةً[1]، والعلاقةُ بـين المعنـى اللغـوي والاصطلاحي واضحة جلية، فوجود «الخـير» و «الـشر» و

(١) القَدْرُ والقَدَرُ: القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عزَّوجـل مـن القـضاء ويحكم به من الأمور. قال أبو منصور: وتقدير الله الخلق تيـسيره كـلاًّ مـنهم لمـا علم أنهم صائرون إليه من السعادة والشقاء، وذلك أنـه علـم مـنهم قبـل خلقـه إياهم. (لسان العرب مادة «ق» ١١|٥٥، ٥٦ دار إحياء التراث العربي، بيروت)

«الجنة» و «النار» ثم دخُول أهلِ الخير الجنّةَ، وأهل الشر النَّارَ كانَ كرواق المنزل ودورة المياه فيه؛ فالأول للسكن والاستجمام، والثاني لقضاء الحوائج الطبيعية كالتغوُّط والتبوُّل، فلو كان لدورة المياه لسان لقالت: ما ذنبي فتُلْقَى فيَّ الأقذار كلّ يوم؟ وما فَضْلُ الرواق فيُزوَّد بالسجاجيد الفاخرة، والأدوات الزُّجاجية، والثريات المضيئة والعطور والروائح الطَّيِّبة؟ أُجِيبَ: هذا يليق بشأنك وقد جاء صنعك لهذا، وذلك يليق بشأنه وقد جاء صنعه لذاك.

وقس على هذا فأنّ الأقذار من البول والبراز لو قالت: ما ذنبنا فنُوضَعَ في دورة المياه، ولا سَعَةَ لنا في الأورقة؟ وما فضل العطور والروائح الطيبة فَتُعطَّرَ بها الأروقةُ، ولا تُعَطَّرَ بها دورةُ المياه؟ أُجِيْبَ عن كل ذلك بنفس الإجابة.

وكذلك لو قالت «النار» ما ذنبي؟ وما فضل «الجنة»؟ أو قال «السوء»: ما ذنبي حتى ليس لي إلاَّ «النَّار» و «المسيؤون»؟ وما فضل «الخير» حتى ليس له إلا «الجنة» و «أصحاب الخير»؟ وما فضل «الخير» حتى يحظى «بالجنة» و «المحسنين» دائمًا؟ أو قال «المسيؤون»: ليس لنا ذنب في كوننا

أشرارًا، وإنما يعود ذلك إلى حظنا. كما أنّ الصالحين إن كانوا صالحين فلا حولَ لهم في ذلك ولا قوةَ؛ وإنما هذا قدَرٌ قدّره الله لهم؛ فالإجابة عن كل ذلك لا تكون إلاّ ما أسلفنا.

وجملةُ القول أَنّ بني آدم إن كانوا يرون أنّ كل ما يتمتعون به من الوجود وما يتبعه من العلم والإرادة والقدرة هو مستعار من الله عزوجلّ، كما سبق أن أَشْبَعْتُ الموضوع بحثًا، فالإجابة عن ذلك بأن يقول الله: أما أنا فمالكٌ ومتصرّف عن اختيارٍ، وأما أنتم فقد خلقتكم لهذا؛ فهو أجدر بكم؛ فليس للعبد إلاّ أن يخضع لأمر الله ويتحرّز عن القيل والقال.

## الرَّدُ على كون أفعال اللّه اضطراريّة

وإما – أفعال الله عزّوجل – اضطرارية، وهذا الوجهُ باطلٌ؛ حيث إنّ الاضطرار عبارة عن العجز والإكراه، فلو كان الله عزوجل عاجزًا ومُكرَهًا، كان عاجزًا ومُكرَهًا من قِبَلِ أحد مِمَّا في هذا الكون؛ لأنه ليس هناك إلا هذا الكون وما فيه من المخلوقات، وواضح أنَّ هذا الوجه باطل؛ وذلك بأن يفيض الله عزوجل الاختيار والقدرة على المخلوقات ثم يكون هو عاجزًا ومُكرَهًا أمامها؛ فحينئذ ينقلب الأمر، ويلزم القولُ بأنَّ الله

عزَّوجلَّ يحتاج إلى المخلوقات؛ لأن عجز الله عزوجل أمام المخلوقات يعني أن الأفعال تصدر عنه بفضل قدرة المخلوقات؛ ومثالُ ذلك أن عبور ركّاب السفينة النهرَ إنما يتمّ بفضل عبور السفينة، وظاهرٌ أن ركاب السفينة يستفيدون في حركتهم من السفينة نفسها، كذلك يلزم حينئذٍ أن الله عزوجلَّ يستفيد من العِبَاد، وقد ثبت بوضوحٍ وجلاءٍ أنَّ العباد يستفيدون في صفاتهم الكمالية من الاختيار والقدرة، من الله عزّوجلّ.

## العالمُ بجميع أجزائه حادث فانٍ

لعلَّ أولي الألباب علموا – من الكلمة السالفة الذكر – أنّ العالم بأسره حادث فانٍ، وليس جزء من أجزائه قديمًا، فإن كان جزءٌ من أجزائه قديمًا، لزم القول بأن ذلك الجزء ليس بمخلوق، وإن لم يكن مخلوقًا لَزِمَ اعتبار ألوهية ذلك الجزء؛ ويكفي للرد على ذلك ما تقدم ذكره من البحث.

والسبب في أن ما كان قديمًا لا يكون مخلوقًا، أنَّ الخلق فعلٌ؛ بل هو أوّلُ أفعال الله عزَّوجلَّ، وأفعاله كلُّها اختيارية، فإن لم تكن اختياريةً، بل كانت اضطرارية وجب التسليم بـ «اختيار» كذلك؛إذ «الاضطرار» إنما يعني أنَّ صاحبه مُكرَهٌ أمام

من له «الاختيار». وبالجملة أن كل فعلٍ – سواء كان اختياريًّا أو اضطراريًّا – يجب فيه الاعتراف بـ «اختيار» لصاحبه أو لغيره، وواضحٌ أن اختيار «الخلق والإيجاد» إنَّما يُتَصَوَّرُ في الأمور التي كانت معدومة قبل وجودها؛ لأنّ «اختيار الإيجاد» عبارة عن أنّ صاحبه إن شاء أبقى «المعدومات» في سِتَار العدم، وإن شاء أَخْرَجَها إلى حيِّز الوجود، كما أنَّ «اختيار الإفناء» عبارة أنّ صاحبه إن شاء أَوْجَدَ «الموجوداتِ» على صَفْحةِ الوجود، وإن شَاءَ جعلها في ستار العدم؛ فإذا اعترفنا أن الموجودات في العالم قد خلقها الله عزوجلّ، واعترفنا كذلك أن الله عزوجل صاحبُ الاختيار في خلقها؛ وجب الاعتراف ألبتة أن كل شيء كان معدومًا قبل وجوده.

## من يخلق أفعال العباد؟

عندما تَمَّ التسليم بما ذُكِرَ، فاسمعوا أنّ الوجود وما في العالم من الصفات الكمالية، لَمَّا كان مستعارًا من الله عزّوجلّ لزم القول بأمرين:

الأول: أن أفعالَ العبادِ الاختيارية تصدر عن اختيار الله عزوجل؛ وذلك مثلاً أن نور المِرآة – إذا انعكس فيها نور

الشمس أو القمر – إذا أشرقت به جُدرانُ المنـزل وأبوابُـه، فإنّما أشرقت هي بنور الشمس أو القمر؛ كذلك أفعالُ العباد التي تصدر عن اختيـارهم وقـدرتهم – إذا كـان اختيـارهم وقدرتهم مستعارًا من الله عزوجـل – إنـما تـصدر هـي عـن اختيـار الله وقدرتـه؛ وذلـك أن اختيـارهم وقـدرتهم همـا مستعاران من الله عزوجلّ.

## من يملك النفع والضر للمخلوقات؟

والثاني: أنّ الله عزوجـل هـو الـذي يملـك للعـالم النفـع والضرّ؛ والـسبب في ذلـك أن الـشمس تملـك نورهـا وتقـدر عليه، بقدر ما لا تملك ولا تقدر عليه الأرضُ؛ وإن كان النـور يتصل بالأرض، ويبتعد عن الشمس؛ فهو يقترب من الأرض قُربًا لا مزيد عليه، ويبتعد عـن الـشمس بُعـدًا يُقَـدَّرُ بملايـين الأميال. مـع ذلـك فـإذا طلعـت الـشمس أشرق النـور، وإذا غربت الـشمس غـابَ معهـا النـور؛ ولا يمكـن لـلأرض أن تسلب الشمسَ نورَها إذا طلعت، وتَدَعَهَا تغرب وحدها، وما ذلك إلا لأنّ النور في الأرض مستعارٌ من نور الشمس.

هكذا وجودُ المخلوقات وصفاتُها الكماليـة همـا مـستعاران

من وجود الله عزوجل وصفاته الكمالية؛ فقيسوا الله عزوجل ووجود المخلوقات بالمثال المذكور أعلاه، فوجودُ المخلوقات – وإن كان متصلاً بها وبعيدًا عن الله عزّوجلَ – يملكه الله عزَوجلَّ ويقدر عليه بقدر ما لا تملكه ولا تقدر عليه المخلوقات. كل ذلك يدلّ على أن وجود المخلوقات ليس مِلكًا لها، وإنّما هو ملك لله عزوجل؛ وذلك مثلاً أن اللباس المُستَعار يكون متصلاً بجسم المُستَعير إلاّ أنه يكون ملكًا للمُعِير، لتَمَكُّنه من إعطائه ومنعه، كذلك وجودُ المخلوقات مِلكٌ لله عزوجل لتَمَكُّنه من إعطائه وسلبه؛ فالله عزوجلّ يملك أن يُعطِيَ المخلوقات وجودَها أو يسلبها إيّاه، كما يملك لها النفع والضرّ.

## المحبوب الحقيقي هو الله عزّوجلّ

علاوةً على النفع والضر – لكون المحامد والفضائل كلها مُعْتَرَفًا بها لله عزّوجلّ، وكل ما يتمتع به ما سواه من المخلوقات من محامد وفضائل هو انعكاس لمحامده وفضائله – يجب الاعتراف بأن المحبوبية الحقيقية لله وحده. وكل محبوب سواه هو يتمتع بانعكاس منه.

***

# فلسفة العبادات في الإسلام

## من يستحق العبادة والطاعة؟

فلما وعيتم هذا، فاسمعوا أنّ الطّاعة إنما عمادُها على ثلاثة أمور: إما الأمل في النفع والراحة، أو الخوف من الضرر والعناء، أو المحبوبية؛ فالمُوَظَّف يطيع صاحبه أملاً في راتبه، والرعيّة تطيع مَلِكَها خوفًا من عقابه؛ والمُحِبُّ يطيع حبيبه – مدفوعًا بحبه – لأجل محبوبيته. فلما كان الله عزَّوجلَّ مستجمعًا لهذه الأمور الثلاثة، فهو يستحق الطاعة بجميع أنواعها.

## الإشراك باللّه لا يُقِرُّه العقل

أما الإشراك بالله فمثالُه: أن يطيع المُوَظَّف غيرَ سيّده، أو يَدِين فردٌ من الرعية لغير مَلِكِه، أو يلهج المحب بذكر غير حبيبه؛ فطبيعيٌّ أنّ هذا المُوَظَّف يستحق أن يُمنَع الرَّاتبَ، وهذا الفرد من الرعية يستحق العقاب، وهذا المحب يستحق الطرد والدفع فضلاً عن الحفاوة والتكريم.

هذا إلى أنه إن كان هذا الغير – الذي ينشط الموظَّف لطاعته ويمتنع عن طاعة سيده – عبدًا لسيّده نفسه؛ أو إن كان

هذا الشخص – الذي يَدِيْن له فرد من الرعية – بدوره فردًا خاضعًا لِلمَلِك؛ أو إن كان غير الحبيب – الذي يلهج بذكره المحبُّ – بالنسبة إلى الحبيب في الجمال كشعاع الشمس الذي ينطبع في المرآة الشوهاء؛ فهنالك يتضاعف الغَضبُ ويزداد العقاب؛ ذلك أنّ هذا «الغير» لا يحتمل أن يكون نِدًّا ومَثيلاً له، فيكونَ ذلك مبرِّرًا للغدربه والجفاء معه.

## طاعةُ اللّه عزّوجلّ وطاعة الأنبياء

وبالجملة، لا يجوز إلا امتثال أوامر الله عزوجل وطاعته، نعم! امتثال أوامر الوزراء والأمراء – إذا كانوا خاضعين للملك، ولم تظهر منهم علامات الخروج عليه – إنما هو امتثال أوامر الملك وطاعته؛ فإن أوامر الوزراء والأمراء هي نفس أوامر الملك؛ كذلك أوامر الأنبياء والعلماء – إذا كانوا صادرين في إصدار هذه الأوامر عن مقتضى منصب النيابة عن الله – هي أوامر الله عزّوجلّ.

## الفرق بين العبادة والطاعة

ثم أقول: إنّ الطاعة أي امتثال الأمر – إذا اعتقد المطيع حاكمَه ووليَّ أمره مالكًا حقيقيًا للنفع والضرر ومصدرًا

أصْـلِيًّا للمحاسـن والمحامـد – عبـادةٌ، وإن لم يكـن الأمـر كـذلك، أي إذا لم يعتقـده مالكًـا للنفـع والـضرر ومـصدرًا للمحاسن والمحامد بشكل مذكور، فطاعتُه لا تُعْتَبرُ عبـادةً؛ لأنَّ هذه الطاعة ليست للمطـاع حقيقـةً، فهـل يطيـع أحـدٌ حاكمًا عُزِل عن منصبه؟ وكذلك من يعشق رجـلاً لم يتحـلَّ بالمحاسن والمحامد؟ وبديهيٌ أن هذه الأمور – مالكية النفع والضرر، والتحلي بالمحاسن والمحامـد – لا تنفـكُّ عـن الله عزَّوجلَّ كما تَنْفَكُّ عن غيره؛ فلا يمكن القولُ بأنّ من يتحلَّ بمالكية النفع والضرر ويتصف بالمحاسـن والمحامـد حقيقـةً فهو المعبود والمحبوب دون الله عزَّوجلَّ.

ولما كانت الطاعة تتضمَّنُ ذُلَّ المطيع وعِـزَّ المطـاع فمـن اعْتُقِدَ مستحقًا لذاته لهذا العـزِّ والكرامـة، أي مالكًـا للنفـع والضرر، ومصدرًا للمحاسن والمحامد، كان هذا الاعتقاد – وإن لم يكن هذا امتثالاً للأمر والنهي – عبادةً كذلك.

## مظهر العبادة عبادة

عـلى هـذا؛ الاعتقـادُ بـأنَّ الله عزَّوجـلَّ مالـك للنفـع والضرر وجامع للمحاسن كلها، والأعمالُ ذات العلاقة مع

هذا الاعتقاد – كعلاقة البدن مع الروح، وأعضائه المختلفة من العين والأذن مع القوى المختلفة من الباصرة والسامعة – هي كلُّها تُعْتَبَرُ عبادةً كذلك.

نعم يكون بين الاعتقاد والأعمال ذات العلاقة معه من الفرق ما هو بين الروح والبدن، والقوة الباصرة والعين، أي كما أنَّ الروح هي حقيقة الإنسان، والبدن خليفتها في عالم الأجسام، والقوة الباصرة هي الأصل في الإبصار، والعين خليفتها في عالم الأجسام، كذلك العبادةُ – في الحقيقة – هي الاعتقاد القلبي، والأعمال خليفته في عالم الأعمال. فالقوة الباصرة تخلُفها العينُ لا الأذنُ، والعين تخلف القوةَ الباصرةَ لا السامعةَ. كذلك الاعتقاد المذكور لا تكون خليفته إلا الأعمالُ ذاتُ العلاقة معه، لا الأعمال الأخرى، كما أنّ تلك الأعمال نفسها تخلف ذلك الاعتقاد، لا الاعتقاد الآخر.

فالجسم الإنسانيُّ يُعامَلُ المعاملةَ اللائقةَ بجسم الإنسان مهما تختفي فيه روحُ الخنزير، وجسم الخنزير يُعَامَلُ المعاملةَ اللائقةَ بجسم الخنزير مهما تختفي فيه روح الإنسان. كذلك القيام والركوع والسجود وغيرها من الأعمال

المنسوبة إلى الاعتقاد المذكور هي كلها عبادة، وإن لم يحصل هذا الاعتقاد بالنسبة إلى الشخص المسجود.

## الإيمان يستلزم العبادات

بعد ما قدَّمت المثال توطئةً وتمهيدًا أقول: من اعتقد الله عزَّوجلَّ مالكًا للنفع والضرر، واحتاج إليه في خلقه وبقائه احتياجَ النور إلى الشمس في نشوئه وبقائه؛ فلا بُدَّ له أن يطيع ويخضع لله عزَّوجلَّ دائمًا، ويعتقد قوَّته مستعارةً من قوَّة الله عزَّوجل، ويقفها على امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

## فلسفة الصلاة وأعمالها

بالإضافة إلى ذلك، يستلزم هذا الاعتقاد أن يعتبر – كما أنَّ أجزاء النور المستعار المنتشرة على وجه الأرض طائفةٌ من نور الشمس، لا نورُ الشمس كله، ويلزم لذلك صغر حجم النور الأول وكبر حجم النور الثاني – وجوده جزءًا حقيرًا، ووجود الله عزَّوجلَّ عظيمًا ذا بال. فالشمس – لكونها علَّةً – أعلى مرتبةً، والنور المستعار المنتشر على الأرض أحطُّ منزلةً. كذلك يجب أن يعترفَ ويُقِرَّ بعظم شأن الله عزَّوجلَّ، وحقارة وجوده نفسه.

## استقبال القبلة

ثم إنَّ هذا الاعتقاد أمر خفيٌّ؛ فلئن كان شيء من الأحوال البدنية يقوم مقامه فهو استقبال جهة الكعبة المشرَّفة – وهي بمثابة المرآة التي تنعكس فيها الشمس أحيانا – التي هي مهبِطُ الأنوار الإلهية في عالم الأجسام.

## القيام في الصلاة واضعًا إحدى يديه على الأخرى

كما أنَّ وقفَ القوة على امتثال أوامره واجتناب نواهيه لئن كان شيء يقابله فهو « القيام» واضعًا إحدى يديه على الأخرى؛ مما يدل على أنَّه ماثل لأداء خدمة الله عزَّوجلَّ.

## الركوع

هذا إلى أنَّ الشعور بحقارة نفسه بعد الاعتراف بجلالة قدر الله عزَّوجلَّ، لئن يقوم مقامه شيء في عالم الأجسام فهو الانحناء الذي يُسَمَّى بـ « الركوع » في اصطلاح أهل الإسلام.

## السجود

ثم إنَّ الشعور بضآلة قدر نفسه بعد الاعتقاد بعلو شأن الله عزَّوجل، لا ينوب منابه شيء من الأحوال والأعمال

البدنيـة إلا وضـع الـرأس والوجـه –اللـذين همـا أشرف الأعضاء في بدن الإنـسان – عـلى الأرض، وإرغـام الأنـف بتراب عتبة الله عزَّوجلَّ. وهذا هو «الـسجود» في مـصطلح أهل الإسلام.

## لا يجوز أداء أعمال الصَّلاة لغير اللّه عزَّوجلّ

ثم إنه لما كانت لهذه الأعمال علاقةٌ مـع الأمـور القلبيـة علاقةَ البدن الإنساني مع الروح، فالبدن الإنسانيُّ يُـسَمَّى – لهذه العلاقة المذكورة – الإنسانَ، كذلك هذه الأعمال يجـب أن تُسَمَّى–لأجل العلاقة المذكورة – عبادةً؛ فلا يجوز أداؤها لغير الله عزَّوجلَّ، وإنّما يُعدُّ أداؤها لغيره من الإشراك به.

## فلسفة الزكاة

اعلموا أيها السادة ! أنه لما أثبت العبد – بعقيدته وأعماله وسلوكياته – أنه طوعُ أمر الله عزَّوجلَّ ورهينُ إشارته أصـبح من خاصَّة جناب الله أحكـم الحـاكمين. ولمـا كانـت أمـوال الدنيا كلها يملكها الله وهومالك الملك – كما تقدَّم ذكره – ثم هي –الأموال– بصورة أو أخرى في حيـازة العبـد وتـصرفه، كان العبد مُؤْتَمَنًا لهذه الأموال وحارسًا لها وخاضعًا لأمـر الله

عزَّوجلَّ في إنفاقها؛ فلا يأكل ولا ينفق على نفسه أو على غيره من هذه الأموال إلا بإذن الله، وتحت أمره.

ثم إنه بعيد عن كرم الله ورحمته أن يكون مُؤْتَمَنُ أمواله ذا حاجةٍ، ثم يأمره بإنفاقها على غيره، كما أنه بعيد عن كرمه ورحمته كذلك أن يكون في حيازة شخصٍ أموالٌ وفيرةٌ، ثم يدع أولي الحاجة معوزين ولا يأمر بإنفاقها عليهم؛ فكان أقربَ إلى الحكمة وأحرى بها ألاَّ يأمر بالإنفاق من المال على غيره إذا كان قليلاً، ويفرض فيه مقدارًا معينًا لغيره إذا كان كثيرًا. فحينئذٍ بذلُ العبد لهذا المقدار من المال حسَبَ أمر الله يُعْتَبَرُ نيابةً عن الله في الإنفاق من المال. ومثالُ ذلك أنَّ الخادم إذا أعطى أحدًا من مال سيده، يُعَدُّ هذا الإعطاء من السيد، ويكون الخادم نائبًا عنه في العطاء والسخاء. فهذه العبادة يسمّيها أهلُ الإسلام «الزكاةَ».

فهاتان الخصلتان: الصلاةُ والزكاةُ، أولاهما عبادة بجميع وجوهها، وأخراهما نيابةٌ عن الله في إنفاق ماله، وعبادة لامتثال أمره. وتلك ثمرة كون الله عزَّوجل مالكَ الملك وأحكم الحاكمين.

## فلسفة الصوم والحج

أما محبوبيَّةُ الله عزَّوجلَّ ومحامده التي هي جديرة بأن يُطْلَقَ عليها اسم «الجمال» فهي تقتضي من المحِبّ أمرين: الأول، الاستغناء والانشغال عن غيرالله عزَّوجلَّ؛ لأنّ شدة حبِّ المحبوبين المجازيين تُغْني المحب عن كل شيء فما بالك بحُبِّ المحبوب الحقيقي؟ والثاني، بعد هذا الاستغناء والانشغال، الهُيَامُ على وجهه شوقًا إلى حبيبه – الله عزَّوجلَّ – مرةً، واعتراء الوجد عليه مرةً أخرى، والتناجي مع حبيبه في الصحراء طورًا، والتبرم من الناصح الأحمق – الشيطان – طورًا آخر. ثم الاستعداد للتضحية بنفسه وماله، وما إلى ذلك من الكيفيات التي يمرّ بها المحب.

أما الأمر الأول فقد يوازيه الصَّوم، الذي يُشير إلى أنَّ شدة حبِّ الله عزَّوجلَّ قد ألهته عن طعامه وشرابه كما ألهت الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، فلما طوى كشحه عن هذه الأمور فماذا بقي؟ لم تبقَ إلا الوسائلُ الجالبة لها كالزراعة، والوظيفة، والتجارة، والعمل بالأجرة؛ والنتائج الناشئة عنها كمعالجة الأمراض التي يُسَبِّبُها الأكل والشرب.

أما الأمر الثاني فقد يقابله أنَّه يأخذ طريقه مدفوعًا بالشوق نحو مهبط الأنوار الإلهية – الكعبة المشرفة – حاسِرَ الرأس، حافيَ القدمين، طويلَ الأظفار، أشْعَثَ الشعر أغبَره، مهلِّلاً مكبِّرًا. هذا هو «الإحرام» عند أهل الإسلام.

فلما وَصَلَ هناك هامَ على وجهه وجدًا، ومشَى من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، وهذا ما يُسَمَّى بـ «الطواف» ثم يتناجى ويتضرع ويبكي في عرفة، ثم يرمي بالأحجار الموضع الخاص للناصح الأحمق – الشيطان –، ولما كانت النصيحة والعذل واللوم بالنسبة للعاشق أشبهَ شيء برش الماء على الحديد المحمرِّ بالنار، فبعد رمي الجمار يستعد – مدفوعًا بإخلاصه – للفداء بنفسه وماله – الأضحية –، وهذا النوع من العبادة يُسَمَّى بـ «لحج».

## الصلاةُ والزكاةُ والصومُ والحج كلها تترابط فيما بينها

ولما كان الاستغناء عن غير الله عزَّوجلَّ الذي يقابله الصوم، بينه وبين الشوق والمحبة والوجدوالتضرع والإخلاص ترابط وتناسق، تلي رمضانَ أيامُ الإحرام، وهي شوال، وذو القعدة، والعشرة الأولى من ذي الحجة.

وجملة القول: إنْ كان بين الصلاة والزكاة ترابط فبين الصوم والحج ترابط كذلك. لا فرق بين الأوليين إلا أنَّ الصلاة تتقدم؛ لأنّهَا عبادة بجميع وجوهها، تم تليها الزكاة؛ لأنها عبادة لامتثال الأمر. كما أنّ صيام رمضان – الذي ليس عبادةً في الحقيقة، وإلا لزِمَ أن يكون الله عزوجلَّ عابدًا رغم كونه معبودًا؛ لأنه هو لا يأكل ولا يشرب ولا يقارِب؛ بل هو عبادة لامتثال أمر الله – يتقدم، ويتأخر عنه الحج – الذي هو عبادة بجميع وجوهه – والسبب في هذا التناسق والترابط ظاهر جليٌّ؛ لأنَّ العبد يتولى – بعد الصلاة – منصبَ النيابة عن الله عزَّوجل وأداء خدمته، وأما في الصوم والحج فأوَّلُ مرحلة من مراحل العشق والمحبة أن يستغني عن غير الله عزَّوجل كما هو الشأن في الصوم.

## مقتضيات الحب في اللّه، والبغض في الله

ثم اعلموا أيها الحضور ! أنّ العبد لما تقرر أنه مملوك لله عزَّوجلَّ، وخاضع لأمره، وجب عليه – لأجل عبوديته ومحبته – ممارسةُ أمرين: أحدهما مساعدة أولياء الله عزَّوجل بماله ونفسه، وثانيهما إلحاق الضرر بأعداء الله في أموالهم

وأنفسهم؛ فالأول هو الحب في الله، والثاني هو البغض في الله. فالسخاء، والرأفة، والإيثارُ، وكرم الخلق، والحياء، وصلة الرحم، وستر العيوب، والنُّصح، وإسداء الخير كل ذلك مع أولياء الله. والجهاد وأخذ الجزية، والغنيمة، والحوار والمناقشة كل ذلك مع أعدائه.

## الإشراك باللّه في العبادة

واعلموا أنَّ من مارس هذه الأعمال ابتغاءً لمرضاة غير الله عزَّوجلَّ، ونوى فيها العبادة فقد أشرك بالله عزَّوجلَّ، وإن لم يَنْوِ فيها العبادة يكون أداءُ أركان الصلاة والحج لغير الله إشراكًا به كذلك. وأما الأعمال الأخرى فلا يكون مُمَارِسُهَا لغير الله مشركًا إذا لم يَنْوِ فيها العبادةَ. وسببُ الفرق بين أركان الصلاة والحج وبين الأعمال الأخرى هو أنَّ العبادة في الأصل هي الصلاة والحج؛ لأنّ كل عمل من أعمالها يدلُّ على عظمة الله عزَّوجلَّ وكونه مطاعًا.

***

# الركن الثاني: النُّبُوَّة

## النُبوَّة والحاجة إليها

ثم أقول بعد ما قدَّمتُ من البحوث الدقيقة: إنَّه لما ثبت أنَّ الله عزَّوجلَّ حاكم ومطاع ومحبوب، وَجَبَ علينا ابتغاء مرضاته، والعمل بما يرضاه. وذلك لا يمكن إلا بعد العلم بما يرضاه وما يكرهه. أمَّا العلم بالرضا والكراهية، فشأنُه أنَّه لا يعلم أحد ما نرضاه وما نكرهه حتى نخبره، فكيف يمكن لأحد أن يعلم ما يرضاه الله وما يكرهه مالم يخبره؟

أما نحن، فأولو الأجسام، وليس شيء أكثر ظهورًا من الجسم، مع هذا لا يمكن لأحد أن يعلم ما في قلوبنا مهما جعلنا حشانا في حشاه أو شققنا له عن القلب. واللهُ عزَّوجلَّ أَلْطَفُ ما يكون؛ لذلك لم تدركه الأبصار لحد اليوم، فكيف يمكن لأحد أن يعلم ما في قلبه ما لم يخبره؟

فإن عرف أحد بعقله السليم شيئًا مما يَصْلُح أن يكونَ مأمورًا به أو منهيًّا عنه من الله، لا يقتضي ذلك أن يتقيَّد الله عزَّوجلَّ في الأمر أو النهي بما يَصْلُحُ أن يكون مأمورًا به أو

منهيًا عنه، وعسى أن يأمر – وهو المستغني والحاكم المطلق – بمزيد من الأوامر والنواهي.

علاوةً على ذلك، فهذا النوع من المعرفة الإجمالية لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوع؛ فلا يمكن امتثال الأوامر واجتناب النواهي كما ينبغي، ما لم تُعْرفِ الأعمال المأمور بها والمنهي عنها بتفاصيلها؛ لذلك لا بُدَّ من الانتظار لأمر من الله، إلاَّ أنَّه – نظرًا لجلالة شأنه – بعيد أن يُخبرَ بنفسه بما يرضاه وما يكرهه كلَّ من هبَّ ودبَّ من النَّاس ويُشَافِهَهُم. إنَّ ملوك الدنيا – على ما يحظون بشيء من النخوة – لا يبلِّغون أوامرهم وفرامينهم بأنفسهم بني جنسهم: الناسَ في محلاَّتهم ومنازلهم. وإنَّما هم يُكَلِّفون خواصَّهم ورجال بلاطهم بتبليغها؛ فهولاء يعلنونها بدورهم أو ينشرونها بوسائل الإعلام.

الله أعزُّ وأجَلُّ من أن يُبَلِّغ أوامره بنفسه كلَّ من هبَّ ودبَّ من النَّاس. وهو كذلك يخبر بأوامره خاصَّته وبِطَانَته، فهم يبلغونها الناس، فخاصةُ الله وبطانته هم الذين يُسَمَّوْنَ بـ «الأنبياء والرسل» عند أهل الإسلام.

## عصمة الأنبياء

وقد جرت العادة أنَّ الملوك لا يختارون خاصةً لهم وبطانةً إلا من هم طوع أمرهم؛ فمن يأذن لمعارضيه بالدخول في جنابه والتقرب إليه؟ لذلك لا بُدَّ للخاصة والمقربين الذين تُفْضَى إليهم بناتُ الصدور – أي الأحكام الأساسيّة – أن يكونوا مطيعين في ظاهرهم وباطنهم.

إلا أنَّ الله العليم الخبير، عند ما يعلم أحدًا مطيعًا في ظاهره وباطنه، لا يخطئ في علمه. وذلك على العكس من ملوك الدنيا؛ فإنَّهم ربما يُخطِئُون في معرفة الموافق من المعارض، والمطيع من العاصي، والمخلص من المنافق؛ فيظهر المطيع عاصيًا، والمخلص منافقًا، أو يحسبه الملك – لسوء فهمه – معارضًا له ومنافقًا، فيطرده من بلاطه.

وأما خاصة الله والمقربون إليه، فهم لا يزالون مقربين إليه ومطيعين له لعدم إمكان سوء الفهم. بناءً على ذلك يجب أن يكونَ الأنبياء معصومين، وألاَّ يُعْزَلُوا عن منصب النبوة، مهما خُفِّفَ عنهم شيء من مسؤولياتها.

## شفاعة الأنبياء

كما أنَّ خاصَّة الملك وأولي الحظوة لديه إنما هم مطيعون

له ومقربون إليه، وليسوا شركاء في ملكه، كذلك الأنبياء والرسل أولو حظوة عند الله ومقربون إليه، وليسوا بشركاء في الألوهية؛ فلا يملكون لأحد أن يُدْخِلُوه الجنَّةَ أو النارَ. وإنما لهم – لما يتمتعون بالحظوة عند الله والتقرب إليه – أن يشفعوا بغاية من التأدب لأحد عند الله أو يشكوه إليه، فكلامُ الأنبياء والرسل مع الله في شأن رفع درجات أتباعهم، أو غفران سيئاتهم يُسَمَّى «الشفاعة» عند أهل الإسلام.

## الردُّ على عقيدة التكفير

جملة القول أنَّ عصمة الأنبياء وشفاعتهم أمران يسيغهما العقل، وأما معصيةُ الأنبياء وقدرتهم الذاتية في إدخال شخصٍ الجنةَ أو النارَ فلا يستسيغهما العقل. وليس من المعقول – كذلك – أن يُدْخَلَ شخصٌ الجنَّةَ أو النارَ بدلاً من آخر؛ فإنَّ للمحبَّة والعداوة لَسببًا وللإنعام والعقاب لعِلَّةً، فحيثما تُوجَد هذه الأسباب والعِلَل تُوجَدُ المحبة أو العداوة؛ فحيثما توجد المحبة أو العداوة توجد الرأفة والرحمة أو الجفاء والكراهية. وبعيد أن يكونَ رجلٌ حسنَ الوجه، بِهَيَّ

الطلعة، كريم الشمائل، أو ذا قرابة، أو ذا نبوغٍ، أو محسنًا، أو سخيًا، ويكون محبوبًا – بدلاً منه – مَنْ ليس حسنَ الوجه ولا نقيّ السريرة، ولا قريبًا ولا ذا نبوغ، ولا محسنًا ولا سخيًا، وهو بعيد كلَّ البعد، يُسِيء ولا يحسن، يؤذي ولا يريح، يضر ولا ينفع. وهذا ما لا يعامله النَّاس مع ما يعاملونه فيما بينهم بأنواعٍ من الظلم، فضلاً عن الله العادل المقسط. فلا يمكن أن يطيع شخص ويُثَابَ آخر، أو يعصي رجل ويُعَاقَبَ آخر، ويطيع الأنبياء، ويستحق الرحمةَ أفرادُ الأمة، أو يعصي أفرادُ الأمة، ويستحق الأنبياءُ اللعنة. ونعوذ بالله. فسيّدنا عيسى عليه السلام والأنبياء الآخرون مقربون إلى الله ومكرَّمون لديه، لم ولن يُعَذّبوا.

فيا أيها المسيحيون ! هذه – عقيدة التكفير – إساءة أدب شديدة تمارسونها مع سيدنا عيسى عليه السلام.

## النبوة يجب أن يتوافر في صاحبها الصفات الثلاث

لقد علمتم أيها السادة ! مما أسلفتُ آنفًا، أنَّ النبوة يجب أن يكون صاحبها في مظهره ومخبره مرضيًّا عند الله، مطيعًا له كذلك؛ لأنه من كان مرضيًا عنده كان مُقَرَّبًا إليه، ومن

كان في ظاهره وباطنه مطيعًا له كان أحرى أن يكـون حـاكمًا تابعًا له. وبديهيٌّ أنه لن يُكَلِّم الملـكَ إلا مـن كـان ذا حظـوةٍ لديه، ولن يبلِّغ رسولُ الملك تحيتَه ورسالتَه إلا من كان مقربًا إليه. كذلك لن يسعد بالكلام مع الله إلا من كـانَ ذا حظـوة لديه، ولن يأتي الملائكة بتحية من الله ورسالة منه إلا إلى مـن كان مقربًا إليه.

ولما كان أساس التقرب إلى الله عـلى مـا يوافـق رضـاه، وجب أن يتوافر في النبي الصفات الثلاث:

**الأولى، إخلاص الحبِّ لله عزَّوجـلَّ**: أن يكـون محِبًـا لله تعالى ومخلصًا له الحبَّ بحيث لا تخطر بباله معصيتُه.

**الثانيـة، حُـسْنُ الأخـلاق**: أن يكـون حـسنَ الأخـلاق ومرضيَّها؛ فكل يعمل حسب ما تُملي عليه أخلاقُه: فالـسخي يسخو ويجود، والبخيل يمنع ويَـشحُّ، وحـسَنُ الخلـق يلقـى ببشر وطلاقة وجه ويريح، وسيء الخلق يلقى بقطوب وتجهُّمٍ ويؤذي؛ لأنَّ كل عملٍ مرتبطٌ بخلقٍ، فإن كان مرتبطًـا بخُلُـقٍ حسنٍ كان حسنًا، وإن كان مرتبطًا بخلق سيء كان سيئًا.

أما الأخلاق، فحسنُها وسوؤها يتوقفان على أنها أ

توافق أخلاقَ الله أم تخالفها؟ فإن كانت توافقها كانت حسنةً، وإن كانت تخالفها كانت سيئة؛ فالأعمال التي توافق أخلاق الله لا يَصِفُها بالسوء إلا السُّفَهَاءُ من النَّاس. فمثلاً: أنه لا يختلف اثنان في أنَّ الله عزَّوجلَّ يُحِبُّ الصالحين، ويُبْغِضُ الطالحين؛ فَيُنْعِمُ على الأولين، ويُعاقب الآخرين؛ فمن كانت جميعُ أعماله وأخلاقه مرضيةً عند الله، كان أحرى أن يعتبره الناس أكملَهم وأحبَّهم وأن يُحِبُّوه ولا يعادوه، ويثنوا عليه ولا يطعنوا فيه. على هذا فما أشدَّ الظُّلْمَ ما يُوَجِّهُه المسيحيون من الاعتراض إلى جهاد سيدنا خاتم النبيين ﷺ.

فهذان الأمران: أي الأعمال والأخلاق من نوعٍ واحدٍ، أي يتعلقان بالمعاملات.

**الثالثة، رجاحة العقل وجودة الفهم**: أن يكون راجح العقل، جيِّد الفهم؛ لأنَّ قِلَّة الفهم أو سوءَه عيب من العيوب، حدِّث عنه ولا حرج؛ وأنَّ تقريب المقربين يكون الغرض من ورائه أن يفطنوا لما أُمِرُوا به، فيعملوا به، ويبلِّغوه غيرهم.

## للأنبياء أَصَالة في مادَّة الحياة والعقل والفهم والأخلاق ولأممهم تبعية فيها

فالأنبياء عليهم السلام يكونون بين الله وأممهم كالقمر بين الشمس والأرض، أي أنَّ نور القمر مُقْتَبَسٌ من نور الشمس ومُرْسَلٌ إلى الأرض؛ فالمادة النورانية المنتشرة على الأرض هي نور القمر نفسه، كذلك مادة العلم والفهم لدى الأمة مأخوذة من الأنبياء، ومادة العلم والفهم هي العقل، فحينئذ لزم أن يكون العقل والفهم لدى الأمَّة – كالنور المنعكس من القمر – انعكاسًا للعقل والفهم لدى الأنبياء عليهم السلام، وذلك يستلزم أن تكون مادةُ الحياة لدى الأمة هي الأخرى مأخوذة من مادة الحياة لدى الأنبياء عليهم السلام؛ لأن العقل لا تنفك عن الحياة، أي لا يمكن أن يوجد العقل بدون الحياة، ولما كانت حياة الأمة مأخوذة من حياة الأنبياء وجَبَ أن تكون أخلاق الأمة هي الأخرى مأخوذة من أخلاق الأنبياء. ويشترط ألا تكون الأمة ضالَّة؛ لأنَّ الأمة الضالة ليست بأمةٍ.

وجملة القول أنَّ بين النبي والأمة لفرقًا؛ فأخلاقُ الأمة

وعقولها وأعمالها تكون – وإن كانت حسنة – كالنور المنتشر المنعكس من القمر الذي هو حسن في حدِّ ذاته؛ ولكنه لا يصل إلى غيره مثل نور القمر، فإن وصَلَ كان كإشراق الرواق بالضوء المنتشر في الفناء في الليلة المقمرة.

وفذلكة الكلام أنَّ التقرب إلى الله، عمادُه على هذه الصفات الثلاث المذكورة، إذا كان للفهم والأخلاق لدى أفراد الأمة نسبة إلى الفهم والأخلاق لدى الأنبياء بشكل مذكور. ثم إنَّ التفاوت بين أخلاق أفراد الأمة يكون كتنوُّر الأشياء المختلفة الألوان بالنور الواحد، فيبدو بعضها حسنًا وبعضها قبيحًا.

## المعجزة ثمرة النبوّة وليست أساسها

خلاصة القول أنّ النبوّة تقتضي أن يتوافر في صاحبها خصلتان: رجاحة الفهم، وكرم الأخلاق، بشكل أسلفته آنفًا. أمّا المعجزات فقد يُنْعِمُ الله عزوجلَّ بها على النبيّ بعد ما يُنْعِمُ عليه بالنبوّة، ولا يكون هناك أنّ من نال الدرجة الأولى في امتحان إظهار المعجزات، أنعم الله عليه بالنبوّة؛ ومن لم يَنَلِ الدرجة الأولى في ذلك، فَشِلَ في كسب النبوّة،

وهذا أمر واضح جليّ؛ لذا يجب على أولي الألباب أن يَزِنُو «الفهم» و «الأخلاق» و «الأعمال» بمقياس العقل أوّلاً، ثم يقولوا: من هو نبيّ، ومن هو ليس بنبيٍّ؟

## الإسلام يطالب أتباعه بالإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين

إنّ المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، ويحبّونهم لا سيما أولي العزم من الرسل منهم، الذين نال دين الله بفضل تأثيرهم وقوّة عزيمتهم وعلوهمتهم شيوعًا وانتشارًا كبيرًا: أمثال سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام؛ فإنّ الإيمان بالأنبياء والرسل ومحبّتهم جزء من الإيمان بالله عند المسلمين.

***

# محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين

لكنهم يعتقدون أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين وسيّدهم وأفضلهم. وبحسب المُنْصِفِيْن – إذا أعملوا الفهم والتفكير – الموازنةُ بين سيرة محمد ﷺ وأحواله، وبين سِيَر سائر الأنبياء والرسل وأحوالهم.

فمن لا يعرف منّا أميّةَ العرب وقسوة طِبَاعهم ونخوتهم وإباءهم؟ فهم أمة أُمِّيَّة، ليس لديهم كتاب من الكتب السماوية ولا غيرها، شَرِسُون في أخلاقهم، يرون القتلَ وسفكَ الدم أمرًا هيّنًا، سُفَهاءُ يعبدون الأحجار، أولو نخوة وإباءٍ، لا يدينون لملك، متقَشِّفون في معاشهم، يعيشون في الرمال الوعساء والصحارى الجدباء عيشةً هادئةً مطمئنةً. فكانت هداية أمثال هؤلاء الأميّين المتكبرين المتغطرسين عملاً صعبًا جدًّا، فضلاً عن تخريجهم عباقرة ونابغين في علوم الإلهيات والأخلاق والسياسة والعبادات والمعاملات، بحيث يتضاءل دونهم مشاهير الحكماء، أمثال أفلاطون وأرسطو.

فإن كنتم في ريب مما قلت، فقارنوا بين كتب علماء المسلمين وبين كتب حكماء الإغريق، ولا يخفى على الدارس لكتب هؤلاء وهؤلاء، أنّ علماء المسلمين قد فاقوا في هذه العلوم كلّها علماءَ العالم كلّه؛ فالبحوث والدراسات التي قدّمها علماء المسلمين لا توجد لدى علماء العالم وحكمائه؛ فمن كان شأن تلاميذه كذلك، فما ظَنُّكَ بمؤسس هذه العلوم. فإن لم يكن هذا معجزةً فأيّ شيء يكون معجزةً بعد ذلك؟!.

## المعجزةُ العلمية تَفْضُلُ المعجزةَ العملية

لو أنصفتم أيّها السادة ! لعلمتم أنّ هذه المعجزة تَفْضُلُ معجزات الأنبياء الآخرين، ويعلم الجميع أنّ العلم له فضل على العمل؛ على هذا فالبارعون في الفنون يلقون إجلالاً وتكريمًا، ومديرو المصالح – رغم كونهم أخفَّ وظيفةً ممن يعملون تحت إشرافهم – ينالون رواتب ضخمة، أليس هذا بسبب فضل العلم؟!

لاحِظُوا الأنبياء بدورهم، فربما يبدو أنّ بعض أفراد أممهم يفوقونهم في العبادة والتنسك؛ ولكنّهم لن يبلغوا

مراتب الأنبياء، ولا سبب في ذلك إلاّ فضل العلم. وبالجملة أنَّ الأنبياء إنما يمتازون عن أفراد أممهم بالعلم لا بالعبادة والتنسك. ولمّا كان الأمر كذلك، لزم أن يكون العلم أفضل من العمل؛ على هذا فالمعجزات العلمية تَفْضُلُ المعجزات العملية شانًا ورُتبةً.

## التعريف بالمعجزات العلمية والعملية

أمّا المعجزات العملية فهي عبارة عن أن يدّعي شخصٌ النبوّةَ، ويمارس عملاً يعجز الناسُ عن ممارسة مثله، وأمّا المعجزات العلمية فهي عبارة عن أن يُقَدِّم مُدَّعٍ للنبوّة علومًا يعجز عن مقاومتها أقرانُه وأندادُه.

## تَتَفَاضَلُ العلوم بحسب تَفَاضُل معلوماتها

إنّ العلوم تتفاضل، مثلاً أنّ ماء الورد والبول يتشابهان شكلاً ويتباينان معنًى، حتى إنّ الأوّل طاهر طيب الرائحة، والثاني نَجِسٌ خَبيث الرائحة، كذلك بين العلم بذات الله عزوجلّ وصفاته وأسرار أحكامه، وبين العلم بالمعلومات الأخرى فرق شاسع؛ بل إذا تأملتم في هذين، وجدتم بينهما بونًا أبعد من المثال المذكور، وذلك لأن ماء الورد والبول

تجمعهما المخلوقية، وأمّا الخالق والمخلوق فلا يجمعهما جامع.

## مزية محمد ﷺ في باب النبوءات

وكذلك يتفاضل العلم بالوقائع والأحداث، فمن أخبر بوقائع الدنيا وأحداثها، كان مُخبرًا بما سيقع في المستقبل القريب. وأمّا من أخبر بما يقع في الآخرة من الأحداث والأحوال، كان مخبرًا بما يقع في المستقبل الأبعد. ولمّا كان الإخبار بما يقع في المستقبل أكثر إعجازًا من الإخبار بما وقع في الماضي؛ لأنّ الثاني يحتمل نوعًا من الاطلاع والمعرفة، بينما الأوّل لا يحتمل ذلك أصلاً؛ فمن اَكْثَرَ من الإخبار بما يقع من الوقائع والأحداث في الأزمان الآتية البعيدة، كان علمه بالوقائع أكثرَ إعجازًا من غيره، فتأمَّلوا من هو أكثر تنبّؤًا بالأحداث والوقائع التي تتعلق بأماكن نائية وأزمان بعيدة؟!.

وأما ما يُحْتَملُ من أنّ النبوءات بأحداث الآخرة وأحوالها، من يعرف صدقها من كذبها؟ فالإجابة عنه أنّ شأن كلّ نُبُوْءةٍ كذلك قبل وقوعها، فإن جاءت نبوءة قبل

تحقُّقها بساعاتٍ شاهدَ تَحقُّقَها جميع الحاضرين، وإن لم يكن الأمر كذلك، يُنبَّأ بشيء أمام أناس ويتحقق أمام أناسٍ آخرين. لاحظوا النبوءات الواردة في التوراة؛ فبعضها لم تتحقق بعدُ.

على كلّ حالٍ، فالنبوءات تصير معجزات في الزمن القادم، أي كون النبوءات معجزاتٍ يُعْرَفُ في مستقبل الأيام، إلاّ أنّ تحقق واحدةٍ أو ثنتين منها يكفي دلالةً على صدق سائر النبوءات الأخرى، كما أنّ القرائن الصادقة والمعجزات الأخرى تُصدِّقها – النبوءات – على هذا فهي توجب اليقين قبل تحققها. أمّا النبوءات المتعلقة بالماضي فهي – إذا انسدّ باب الاطّلاع عليه – تُعَدُّ معجزات في نفس الوقت الذي جاء فيه التنبأ بها.

وجملة القول أنّ نبوءات محمد ﷺ أكثر عددًا من نبوءات غيره من الأنبياء والرسل، ومن شاء فليقارن بينهما، وقد تحقق كثير منها، مثلاً: الخلافة بعده ثلاثون سنةً،[1]

(١) قال سفينة : قال رسول الله ﷺ: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك . رواه الترمذي في الفتن (باب الخلافة ٢/ ٤٦)

ومقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه[1]، ومقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما[2]، وصلح طائفتين عظيمتين على يدي الحسن بن عليّ رضي الله عنهما[3]، وغزو المسلمين بلادَ فارس والروم[4]، وفتح البيت المقدس[5]، وقيام الدولتين الأموية[6]،

---

(١) عن ابن عمر قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة ، فقال : يقتل فيها هذا مظلومًا لعثمان . (رواه الترمذي في مناقب عثمان رضي الله عنه ٢/ ٢١٢)

(٢) قالت أمّ سلمة : رأيت رسول الله ﷺ تعني في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك ؟ يا رسول الله! قال: شهدت قتل الحسين آنفا . (رواه الترمذي في المناقب ، مناقب الحسين ٢/ ٢١٨)

(٣) قال أبوبكرة رضي الله عنه : بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن ، فقال: ابني هذا سيّدٌ ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين . (رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي إنّ ابني هذا سيد ٢/ ١٠٥٣)

(٤) قال نافع بن عتبة : حفظت من النبي ﷺ أربع كلمات : اعدهن في يدي، قال : تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله . (رواه مسلم في الفتن ٢/ ٣٩٣)

(٥) عن عوف بن مالك قال : أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم ، فقال : اعدد ستًا بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس . الحديث . (رواه البخاري ٣١٨٦)

(٦) عن أبي عبيدة أرفعه : لا يزال هذا أمر أمتي قائما بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له : يزيد . (رواه الموصلي «٨٧٠» والبزار)

والعباسية[1]، وخروج النار في الحجاز[2]، وغزو التتر[3]، وما إلى تلك من النبوءات التي تحقق كثير منها.

وفي جانب آخر، أخبر بالوقائع والأحداث في الماضي – رغم أنّه كان أمّيًّا ولم يَحْظَ بصحبة عالم يهوديّ أو نصرانيّ – فإخباره بأحداث وأحوال الأنبياء السابقين واضح وضوحَ الشمس في رائعة النهارلاينكره إلاّ متعصب أومكابر.

---

(١) عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ أخذ بيد عمه العباس، ثم قال: يا عباس إنه لا تكون نبوة إلا كانت بعدها خلافة وسيلي من ولدك آخر الزمان سبعة عشر منهم السفاح ومنهم المنصور، ومنهم المهدي وليس بمهدي، ومنهم الجموح، ومنهم العاقب ومنهم الواهن ومن ولدك وويل لأمتي منه، كيف يعقرها ويهلكها ويذهب بأموالها، وأتباعه على غير دين الإسلام، فإذا بويع لصلبه فعند الثامن عشر انقطاع دولتهم وخروج أهل المغرب من بيوتهم. (رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الأول بن عبد الله المعلم)

(٢) عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري. (رواه البخاري في الفتن ٧١١٨. باب خروج النار ٢/ ١٠٥٤)

(٣) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوما وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون في الشعر. (رواه مسلم في الفتن ٢/ ٣٩٥) قال النووي في شرح هذا الحديث: وجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا وقاتلهم المسلمون مرات وقتالهم الآن.

## مزيته ﷺ في الأخلاق

أمّا أخلاقه ﷺ، فمن الواضح أنّه لم يكن ملِكًا من الملوك ولا ثريًا من الأثرياء، وكان إفلاسُه أبينَ من أن يُبَيَّنَ، مع هذا فقد جهّز جنودًا أوفياء، ملكوا الجزيرة العربية كلّها، ثم فتحوا بلادَ فارس والروم والعراق في مدة قصيرة، وكان تعاملهم وسلوكهم مع المفتوحين غايةً في النزاهة، حتى إنّ جنديًا من الجنود المسلمين لم يمسَّ أحدًا من المفتوحين بأذىً ما عدا المبارزين منهم في ساحات القتال، وما سبب ذلك إلاَّ كرمُ أخلاقه ﷺ، وبالجملة آثار الدلائل القاطعة على أخلاقه وعلمه باقية حتى الآن، فمن لم يصدِّقه فهو وشأنَه.

## القرآن معجزة من حيث احتواؤه على علوم لا تُحصَى

علاوة على ذلك فالقرآن الذي هو أفضل المعجزات العلمية وأعلاها شأنًا برهانٌ قاطع؛ حيث لم يستطع أحد أن يقاومه في أمر من أموره، فهو يحتوي على العلم بذات الله عزّوجل وصفاته وتجلياته، وعلم بدء الخلق، وعلم البرزخ، وعلم الآخرة، وعلم الأحوال، وعلم الأفعال، وعلم التأريخ وما إلى ذلك؛ بقدر ما لا يحتوي عليه كتاب آخر،

ومن يدَّعِ خلاف ذلك، فليأت ببرهان إن كان من الصادقين.

## القرآن معجزة من حيث اشتماله على الفصاحة والبلاغة

هذا إلى أنّ القرآن قد بلغ في الفصاحة والبلاغة مبلغًا لم يمكن لأحد أن يقاومه في هذا الشأن حتى يومنا هذا. نعم إنّ محاسن الأجسام والمحسوسات ومقابحها، يمكن إدراكُها بنظرةٍ واحدة والتفاتة منفردة، وأما محاسن الروح وفضائلها فلا يمكن إدراكُها بنظرة واحدةٍ. وواضح أنّ هذا يدل على كمال لطافتها لا على النقص فيها؛ فإذا خفيت على الغبي القليلِ الفهمِ وجوهُ الفصاحة والبلاغة في القرآن، فذلك لا يدل على العيب فيه، وإنّما يدل على كماله.

على أنّ النصّ القرآني يمتاز حتى عند السوقة من الناس عن النصوص الأخرى، كما يمتاز خط الخطاط البارع عن خطِّ الخطاط الرديء الخط. فكما أنه يُدْرَك تناسبُ ملامح الحِسان الوجوه، وتناسُقُ حروف خطوط الخطاطين الماهرين، ولا يمكن لأحد أن يُعَرِّف به أَكْثَرَ مِن أن يقول: إليكم هذا فلاحظوه، كذلك تناسُقُ النصّ القرآني الذي هو

عبارة عن الفصاحة والبلاغة يُدْرِكُه كلُّ واحد من الناس، إلا أنّه لا يمكن أن يُعرِّفَ بحقيقته أكثر من أن يقول: إليكم هذا فانظروا إليه.

## القرآن كلام اللّه، والتوراة والإنجيل كتابا الله

وخلاصة القول أن محمدًا ﷺ أوفر حظًا من المعجزات العلمية من غيره من الأنبياء والرسل؛ لأن كلام الله إنّما نُزِّل عليه فحسب، ولم ينزل على غيره من الأنبياء والمرسلين، فقد اعترف العلماء من أهل الكتاب بأنّ ألفاظ التوراة والإنجيل ليست مُنَزَّلةً من الله، وإنما أُلْهِمَتْ معانٍ منه؛ ثم إنّ الأنبياء والحواريين صاغوها بألفاظ من عندهم.

أما أنا فأعتقد أنّ ألفاظ الكتب السماوية السابقة هي منَزَّلة من الله كذلك، إلا أنها لم تبلغ درجةَ الفصاحة والبلاغة التي تليق بشأن الله عزوجل؛ وذلك أن هذه الكتب ليست صادرة عن صفة كلام الله عزوجلّ، أو بعبارة أخرى أن ألفاظها من قبل الملائكة، وإن كانت معانيها من الله. ولعلّ هذا هو السبب فيما عُبِّرَ عَن التوراةِ والإنجيلِ في القرآن والحديثِ بلفظة «كتاب الله» لا بلفظة «كلام الله»

اَللّهم إلا في موضع واحد، وهو يحتمل معنيين، الأول: المراد هنا بكلام الله التوراةُ، والثاني: المراد به الكلام الـذي سـمعه نفر من بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، فـإن أُرِيْـدَ بـه الثاني فلا يثبت به أنَّ التوراة كلام الله، وإن أُرِيْـدَ بـه الأول، فمثاله مثال الشعراء الذين يتحدثون إلى القـرويين، بلغـتهم القروية أحيانًا، فحينئذٍ وإن كان هذا الكلام كـلام الـشعراء إلاّ أنـه لا يـشتمل عـلى جمـال الـشعر وروعـة البيـان وقـوة الفصاحة. كذلك التوراة بالنسبة إلى الله عزوجل، ولعلّ هذا هو السبب في أن الله لم يدّع إعجاز التـوراة والإنجيـل، فلـو ادّعى إعجازهما لما كانت معجزة أعظم من هذه المعجزة كـما أسلفتُ آنفا.

## صاحب المعجزة العلمية أفضل من صاحب المعجزة العملية

ولما كان العلم من أعظم الصفات التي تتعلـق بالعـالَم، كالعلم، والقدرة، والإرادة، والمشيئة، والكلام؛ فـان العلـم يحتاج إلى المعلوم، والقدرة إلى المقـدور، والإرادة إلى المـراد، والمشيئة إلى المرغوب، والكلام إلى المخاطب، كان النبي ﷺ صاحب المعجزة العلمية أعظم مكانةً من الأنبيـاء والرسـل

أصحاب المعجزات العملية؛ فإن علوّ شأن المعجزة يدل على أن صاحبها أفضل وأوحد في ذلك الشأن؛ على هذا فقد وجب على أولي الألباب والإنصاف الاعترافُ بأفضلِيَّة الرسول ﷺ.

## ختم النبوّة

بناءً على ذلك لما رأينا أنَّه ليس هنا صفة تفوق العلم وتتعلق بالعالم تَيَقَّنَّا – بشكل تلقائي – أنَّ محمدًا ﷺ قد انتهت إليه مراتب الكمال، كما تنتهي إلى المِلك مراتب الحكم؛ فيمكننا أن نَصِفَ محمدًا ﷺ بخاتم الكاملين وخاتم النبيين كما يمكننا أن نصف الملك بخاتم الحاكمين.

## يجب على أتباع الديانات الإيمانُ بمحمد ﷺ

فلما ثَبَتَ أنه قد انتهى إلى محمد ﷺ مراتب الكمال كلها – لكون النبوة أعلى صفات الكمال الإنساني كما يُعْترف بذلك ويَدُلُّ عليه بحثُ التقرب إلى الله المتقدِّمُ ذكرُه – وجَبَ على أهل الكتاب كلهم الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ بعد مبعثه نبيًا؛ لأنَّ الحاكم الأعلى يجب امتثال أوامره على من تحته من الحكَّام فضلاً عن أفراد الرعية.

علاوةً على ذلك، فمثلاً «لورد لاطن»[1] - نائب الملك على عهد الاستعمار الإنجليزي في الهند – يجب امتثال أوامره في عهده، ولا يكفي ولا يُجْزِئُ في عهده امتثال أوامر «لورد نارس بروك» - نائب الملك السابق – كذلك يجب الإيمان بمحمد ﷺ في عهده وفيما بعده، ولا يكفي الإيمان بالأنبياء السابقين ولا يكون سببًا للنجاة.

## نبوءة عيسى عليه السلام بشأن محمد ﷺ

ولأجل ذلك لم يَدَّعِ أحد منَ الأنبياء والرسل أنَّه خاتم النبيين سوى محمد ﷺ، بل نبوءة سيدنا عيسى عليه السلام الواردة في الإنجيل وهي: «يأتي سيد العالم» تدل بدورها على أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لم يكن خاتمَ النَّبِيين؛ لأنَّ الخاتم – على حدِّ قوله – لا يكون إلا سيد العالم؛ لذلك فنعتقد أنَّ محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين. وكونه خاتمًا يدل على كونه سيدًا، ونعتقد كذلك - بما رُوِيَ عن الرسول

(١) تمَّ إعداد هذا البحث للحوار الديني المنعقد في ٧/ مايو ١٨٧٦م، وكان ذلك بداية عهد الاستعمار الإنجليزي في الهند ؛ فذكرت أسماء نُوَّاب الملك على ذلك العهد للمثال.

ﷺ أنَّه قال: أنا خاتم النبيين[1] - أنّ «سيد العالم» الذي بَشَّرَ به سيدنا عيسى عليه السلام هو محمد رسول الله ﷺ.

## معنى نسخ الأحكام

وأمَّا الشبهة بأنَّ هذا يعني نسخ الأحكام، والنسخ يَدُلُّ على الخطأ في الحكم الأول، والخطأ لا يُتَصَوَّر في علم الله عزَّوجلَّ وأحكامه؛ فكان من الخطأ أن تقتصر النجاة في الآخرة على الإيمان بمحمد ﷺ.

فالإجابة عن ذلك أنَّ النسخ يعني التغييرًا في الأحكام لا غير. ومن الظُّلْمِ الشَّديدِ اعتبار النسخ خطأً؛ إنَّ النسخ كلمة عربية، فاسألونا عن معناها قبل إثارة الشبهة؛ فاعلموا أنَّ النسخ في أحكام الله يُشْبِهُ تغيير الطبيب وصفةَ «المنضج»[2] بوصفة «المسهل»[3]. ويؤيد ذلك ما قَدَّمَت من البحث في أنَّ أوامر الله نافعةٌ للعبد ونواهيه ضارةٌ له، وذكرت لذلك مثال الطبيب.

---

(١) روى أحمد في مسنده الحديث بكامله عن حذيفة أنَّ نبي الله ﷺ قال: «في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي» ٥/ ٣٩٦.

(٢) الدواء الذي ينضج الموادَّ الموجودة في المعدة.

(٣) الدواء الذي يُلين المواد الفاسدة ويخرجها من المعدة.

## في النسخ اختلاف لفظي

وخلاصة القول أنَّ التغيير في أحكام الله مثل التغيير في أحكام حُكَّام الدنيا، لا يكون لخطأ في الفهم؛ وإنما الغرض من ورائه أنَّ الحكم الأول قد انتهى عهده مثل «المنضح»[1] وجاء عهد الحكم الثاني مثل «المسْهِل»، وهذا النوع من التغيير قد يعترف به النصارى. وهم يؤمنون بأنَّ بعض أحكام التوراة قدتغيَّرت بالإنجيل؛ فإن كانوا يسمون هذا النوع من النسخ تكميلاً؛ فهذا خلاف لفظي فحسب، وإن كانوا يسمونه نسخًا فذلك ما كنا نبغي.

## فضل محمد ﷺ على موسى كليم الله

ثم أقول: لعلَّ النصارى يحسبون أن سيدنا موسى «كليم الله» وسيّدنا عيسى «كلمةُ الله»، ويُعتَرفُ بذلك لهما؛ فما فَضْلُ محمد ﷺ بنزول كلام الله عليه ؟.

والإجابة عن ذلك أنّ موسى «كليم الله» معناه أنَّه كان

(١) كانت طريقة معالجة الأطباء القدامى أنهم كانوا يصفون للمريض أوَّلَ الأمر الدواء الذي ينضج المواد الفاسدة الموجودة في معدته ، فإذا تأكدوا من نُضجها ، وصفوا له الدواء المسهل الذي يلين معدته ويمشيها حتى تخرج المواد الفاسدة كلها من المعدة.

مخاطَبًا لله وسامعًا لكلامه، ولم يكن متكلمًا بكلامه، وناطقًا به بلسانه؛ وطبعًا أنّ سماع الكلام الفصيح والبليغ لا يُعَدُّ فضيلةً للسامع، وإلا لكانَ كلُّ من سَمِعَ الكلامَ الفصيحَ والبليغَ فصيحًا بليغًا وصاحبَ إعجاز في الكلام.

أمّا التكلم بالكلام البليغ وصدوره من اللسان فيُعَدُّ فضيلةً إذا لم يسمعه من أحد سوى الله عزَّوجل، وإنَّما أوحى به الله إليه بفضله وكرمه، فإن أُكْرِمَ به أحد من الأنبياء فهو محمد ﷺ؛ لذلك لم يدَّعِ الإعجاز في الكلام أحدٌ سواه.

## معنى النبوءة الواردة في التوراة

ويَسْتَيْقِنُ الحضور والمستمعون للمحاضرة أنّ النبوءة الواردة في التوراة: «استنطقه بكلامي» هي تعني محمدًا ﷺ، كما يتضح لهم أن الفقرةَ في «النبوءة» الموجَّهةَ إلى سيدنا موسى عليه السلام: «أبعث رسولاً مثلك» ليس معناها أنَّك – موسى عليه السلام – وهو – محمد ﷺ – يتساويان مرتبةً، وإنما معناها أنّه أُنْعِمُ عليه بكلامي كما أنعمتُ عليك به.

إلا أنه لو أطلق هذا التشبيه لدَلَّ على المماثلة الكاملة بينهما؛ ولكنه قال مستثنيًا ومُسْتَدْرِكًا: «استنطقه بكلامي»

حتى يتبيَّنَ أنَّه أفضل منك؛ لأنه يكون حينئذٍ بمثابة لسان الله عزَّوجلَّ، ويكون مثله كمثل رجل، افْتَرِضُوا أنه مسَّه جِنٌّ، فتكلَّم بالكلام، أو تلقَّت روح جاهلٍ انعكاسًا من روح عالم تحت تأثير «المسمريزم»[1]، فجرت على لسانه العلومُ، فحينئذ كما يكون المتكلم غير من له اللسان، فيُقالُ – نظرًا إلى الظاهر – إنه المتكلم. فتخيَّلوا في شأن الرسول ﷺ كذلك. وواضح أن اللسان يُنْسَبُ إلى المتكلم، وأما الأذن فتُنْسَبُ إلى السامع؛ فلما ثبت أنَّ المتكلم هو الله عزَّوجل، وأنَّ الرسول ﷺ بمثابة لسانه وتُرْجُمانه، فلا شكٍ أنَّ موسى عليه السلام لا يعدل محمدًا ﷺ مكانةً من هذه الناحية.

فلما وجَبَ الاعتراف بذلك ثبت منه – بشكل آليّ – أنَّ من يعارض هذا الرسول ينتقم الله منه؛ فعندئذٍ معارضةُ هذا الرسول أحرى وأجدر أن تُوْصَفَ بمعارضة الله من معارضة الأنبياء الآخرين؛ فينتقم الله نفسه، إلا أنه كما اعتبرنا محمدًا ﷺ لسانًا وتُرْجُمانًا من الله في باب الكلام نعتبره -كذلك- مُمَثِّلاً من الله في باب الانتقام، فغزوات

(١) التنويم المغنطيسي.

الرسول ﷺ التي غزاها مع الأعداء هي مظاهر لذلك الانتقام، بالإضافة إلى الأنواع الأخرى من العذاب التي يلقونها في الآخرة.

## فضل محمد ﷺ على عيسى كلمة الله

وأما كونُ سيدنا عيسى عليه السلام كلمةَ الله فيُعَدُّ مزيةً على المخاطب لا على المتكلم، بل كون الكلمةِ مفعولاً للمتكلم هو بدوره يدل على أفضلية المتكلم؛ فلما اعتبرنا الرسول ﷺ متكلمًا كان أفضلَ من سيدنا عيسى كلمة الله.

## الكائنات كلها كلمات الله

علاوةً على ذلك، فإنّ الأنبياء كلهم بل الكائنات كلها كلمات الله. وبيانُ ذلك أنّ الكلام الحقيقي هو الكلام النفسي، وواضح أنّ كل شيء يُقَدَّر ويُفَكَّر فيه قبل صُنْعِه، فيوجد في الذهن أوَّلَ الأمر، ثم يوجد في الخارج؛ على هذا فكل شيء هو كلمة الله. وهنا يمتاز سيدنا عيسى عليه السلام بما جاء عنه في القرآن: «وَكَلِمَتُه أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ»[1] ومعنى ذلك أنَّ عيسى كلمة الله، ألقاها إلى مريم عليها

(١) النساء/ ١٧١.

السلام، وليس هذا مزية، هو وغيره في ذلك سواء، لا فرق بينه وبين غيره إلا أنَّه كلمة ألقاها الله إلى مريم عليها السلام من غير واسطة؛ فعُرِف لذلك بكلمة الله.

فلما رأينا – بعد هذا البحث – مصدر فضل محمد ﷺ ووجدناه صفة العلم، وهي صفة تفوق جميع الصفات حتى صفة الكلام؛ لأنّ الكلام هو بدوره نتيجة العلم، يعود هذا البحث أكثر انطباقًا على الرسول ﷺ وأكثر دلالةً على فضله على جميع الأنبياء والمرسلين.

وخلاصة القول أنّ سيدنا عيسى عليه السلام إنْ كانَ مفعولاً لصفة الكلام – لكونه كلمة – وظهوراً ومظهراً لصفة الكلام؛ فإنَّ كلَّ مفعول يكون ظهورًا ومظهرًا للمصدر، كما يتضح لنا ذلك في مشاهدة نور الشمس والأرض؛ فالأول مفعولٌ مطلق، والثاني مفعول به. ذلك ظهور وهذا مظهر، فاعْتَبِرُوْا الرسولَ ﷺ ظهورًا ومظهرًا لصفة العلم التي تسبق صفة الكلام.

## صفة الكلام وإحياء الموتى

بناءً على هذا فقد فاقَ الرسول ﷺ سيدنا موسى عليه

السلام وسيدنا عيسى عليه السلام في تـأثير صـفة الكـلام، وذلك أنّ الكلام من خواصِّ الحياة، ولا يُتَـصَوَّر الكـلامُ في حال الموت؛ على هذا فمـن كانـت فيـه صـفة الكـلام أكثـر ظهورًا كان أكثر تأثيرًا للإحياء.

***

# الموازنة بين معجزات محمد ﷺ
# وبين معجزات غيره من الأنبياء والمرسلين

## الموازنة بين محمد ﷺ
## وسيدنا موسى عليه السلام في إحياء الموتى

ولئن ظهر من سيدنا موسى عليه السلام أنّ عصاه تحوَّلت ثعبانًا فقد ظهر من الرسول ﷺ أنَّ الأحجار والأسطوانة اليابسة[1] من النخيل قد تحوَّلت أحياءً، وهي

(١) أخرج البخاري {كتاب المناقب ١/ ٥٠٦} عن جابر أنَّ النبي ﷺ كان يقوم إلى شجرة أو نخلة فقالت إمراة من الأنصار أو رجل يا رسول الله ألا نجعل لك منبرًا قال : إن شئتم فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبي ، فنزل وضمَّها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكّن . قال : «كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها» وزاد أحمد «لو لم أحتضنه لحنَّ إلى يوم القيامة» وزاد الدارمي من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه فرجع النبي ﷺ ووضع يده عليه وقال: «اختر أن أغرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت ، وإن شئت أن أغرسك في الجنة ، فتشرب من أنهارها وعيونها ، فيحسن نبتك وتثمر ، فيأكل أولياء الله من ثمرتك» فسمع النبي ﷺ وهو يقول له : «قد فعلت مرتين» فسئل النبي ﷺ، فقال : «اختار أن أغرسه في الجنة» (الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/ ١٢٦-١٢٧، دار الكتب العلمية ، بيروت)

على سيرتها الأولى، فلو تحوّلت إلى حيوان كعصا سيدنا موسى عليه السلام كان يسع القول بأنَّها تُشْبِهُ الأحياء في قليل أو كثير؛ إلا أنَّ الأسطوانة اليابسة تفيض حنانًا وتبكي حُبًّا وشوقًا، وليس فيها شيء من الحياة، ولو كان فيها شيء من الحياة لكان لها شبه بالأحياء. مع ذلك فظهور لواعج الشوق ولوعة الفراق للرسول ﷺ من الأسطوانة اليابسة أمام الجمع الغفير من الناس يوم الجمعة يَدُلُّ على أفضلية الرسول ﷺ؛ لأنَّ لواعج الشوق ولوعة الفراق هذه تدل على الإدراك والشعور الكامل، مما يُثْبِتُ أنَّ عصا سيدنا موسى عليه السلام لم تكن تُشْبِهُ الأسطوانة في شيء؛ فهناك لم يظهر من الثعبان أكثر مما يظهر من فصيلته من الثعابين. وأما هنا فقد ظهر من الأسطوانة من آثار الحياة ما لا يُرْجَى إلاّ من البشر.

قِس على هذا؛ فتسليم الأحجار على الرسول[1] ﷺ،

(١) قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة) ٢/ ٢٤٥أ ط: الهند.

وامتثال الأشجار لأوامره[1]، وانتقالها من مكانٍ إلى آخر، وانحناء شجرتين للستر عليه، كل ذلك يدل على الإدراك والشعورالكامل الذي لايُتَوَقَّع إلا من الأحياء من أفراد البشر.

## الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في إحياء الموتى

قِسْ على ذلك فإحياء سيدنا عيسى عليه السلام الموتى،

(١) أخرج أحمد وابن سعد والحاكم وصححه والبيهقي، عن يعلى بن مرة قال: سافرت مع النبي ﷺ إلى مكة، فرأيت منه شيئًا عجيبًا. نزلنا منزلاً فقال: انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل إن رسول الله – ﷺ – يقول لكما أن تجتمعا. فانطلقت فقلت لهما ذلك فانتزعت كل واحدة من أصلها فنزت كل واحدة إلى صاحبتها، فالتقتا جميعًا، فقضى حاجته من ورائهما. ثم قال انطلق فقل لهما فلترجع كل واحدة إلى مكانها فأتيتهما وقلت لهما ذلك فنزعت كل واحدة حتى عادت إلى مكانها. الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/ ٦٢. عن جابر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في سفر، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد البراز تباعد حتى لايراه أحد، فنزلنا منزلا بفلاة من الأرض ليس فيها علم ولا شجر، فقال لي: «ياجابر خذ الإداوة وانطلق بنا» فملأت الإداوة ماءً فانطلقنا فمشينا حتى لا نكاد نُرى، فإذا شجرتان بينهما أذرع فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر! انطلق فقل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ: الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما» ففعلت، فرجعت حتى لحقت بصاحبتها، فجلس خلفها حتى قضى حاجته. (دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ١٨، دار الكتب العلمية، بيروت)

وصنعه الطيور من الطين وإحياؤها، فهذا كله لا يعدل معجزات الرسول ﷺ ؛ لأن الميت يكون حيًا قبل موته، وأما الأسطوانة فلم تكن حيةً قط، وكذلك صنعه للطيور من الطين وإحياؤها؛ لأنَّ الطيور كان لها شِبْهٌ بالأحياء إلى حدٍّ ما، وأما الأسطوانة فلم يكن فيها شيء من ذلك قط، بَلْهَ مزية الأسطوانة في الإدراك والشعور.

مع هذا فإن لم يعترفوا – المستمعون من مختلف الديانات – بذلك صادرين عن العصبية، سادرين في الغواية مكابرين، فما إلى إقناعهم من سبيل. فكلٌ حرٌ طليق في القول فليقل ماشاء، ولكنه لا بُدَّ من التفكير في أمر الآخرة.

## فضل محمد ﷺ على الأنبياء الآخرين

## في المعجزات العملية

ثم أقول: قد ثبت – بمقتضى الإنصاف – واضحًا جليًا أنَّ النبي ﷺ فاق الأنبياء والرسل الآخرين في المعجزات العملية، بل وثبتَ – أثناء البحث هامشيًا – بوضوح وجلاء أنَّه فاقَهم في المعجزات العلمية كذلك؛ إذ مشيُ الأشجار، وبكاء الأسطوانة من جملة الأعمال لامن جملة العلوم. ولما

كانت الأعمال الاختيارية والبكاء والتألم تحتاج إلى الإدراك والشعور والحياة، ظهرت المعجزات العلمية في هذه الحوادث بهذه الأعمال.

ثم أرجو المنصفين من المستمعين أن يستمعوا لشيءٍ من كلمتي هذه حتى يتبين لهم فضل محمد ﷺ على الأنبياء والرسل الآخرين في المعجزات العملية كذلك.

## الموازنة بين محمد ﷺ وموسى عليه السلام

## في معجزة تكثير الماء

ولئن كان الماء يخرج من الأحجاربفضل سيدنا موسى عليه السلام، فقد كان الماء يخرج من يد محمد ﷺ المباركة[1]؛ وواضح أنَّ خروج الماء من الأحجار ليس بأعجب وأغرب من خروجه من يد من لحمٍ ودمٍ. وخروج الماء من الأحجار

(١) عن جابر بن عبد الله قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس نحوه ، قال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ؛ فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ، قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة . (صحيح البخاري ، كتاب المناقب ١/ ٥٠٥)

في معجزة موسى عليه السلام لا يُعْتَبَرُ مزِيَّـةً لجـسده، وأمـا خروج الماء من يده المباركة فيدل على أنَّ يده مصدر بركـات لا تُحصى.

بل لما رأينا أنَّ النبيَّ ﷺ بَسَطَ يديه على إناءٍ قليـل المـاء، فتدفق فيه الماء بغزارةٍ حتى روي من في الجـيش مـن النـاس ودوابهم؛ عرفنا – بمقتضى الفهم السليم – أنه كما أنَّ المرآة – إذا واجهت الشمس – قابلة للنـور فحـسب، وأن الـشمس مفيضة للنور، والنور بكامله في المرآة هو من الشمس لا من المرآة، أو كما أنَّ السماء مؤثرة في كائنات الجو[1] وحوادث مـا بـين الأرض والـسماء، وأنَّ الأرض قابلـة لهـا وحـدها، أي تتجلى فيها محاسن غيرها. كذلك عندما بسط النبي ﷺ يـده على الماء، وظهرت معجزة تكثير الماء فـاعلموا أنَّ المـاء كـان قابلاً للتأثير وحده وأنَّ التأثير كان من يده ﷺ، أي أنَّ يـده كانت واسطةَ الإفاضة وآلة الإيجاد لتأثير الله عزَّوجـل، وإن كان الله عزَّوجلَّ يقدر على ذلك دونـما واسـطة ولا وسـيلة؛

(١) كائنات الجو: هي ما يحدث من العناصر، فيما بين الأرض والسماء بلا مزاج، كالسحاب والمطر والثلج.

إلا أنَّه مما لا شك فيه أن خروج الماء بالطريق المذكور يدل دلالةً واضحةً على أن كل ما حدث، حدث بتأثير يده المباركة. ولا تظهر هذه المزية في معجزة سيدنا موسى عليه السلام، وإنما هي تدل على قدرة الله عزَّوجل وحدها.

## الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في معجزة تكثير الطعام

قس على ذلك نَبْعَ ماء البئر بتفل الرسول ﷺ فيها[1]، وازديادُ الطعام بالدعاء بالبركة فيه[2]. يدل ذلك على مزيته

(١) أخرج البخاري عن البراء قال : كنا يوم الحديبية أربع عشرة مئة ، والحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة ، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر ، فدعا بماء ، فمضمض ، ومجَّ في البئر ، فمكثنا غير بعيد ، ثم استقينا حتى روينا ورويت أو صدرت ركابنا . (صحيح البخاري كتاب المناقب ١/ ٥٠٥) وفي حديث آخر أخرجه البيهقي: أتى أنس بن مالك بقباء فسألهم عن بئر هناك ، قال : فدللته عليها ، فقال : لقد كانت هذه ، وإنَّ الرجل لينضح على حماره فينزح، فنستخرجها له ، فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذنوب فسقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ثم أمر به فأعيد في البئر ، قال: فما نزحت بعدُ . (دلائل النبوة ٦/ ١٣٦)

(٢) عن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺضعيفًا ، أعرف فيه ←

➜ الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلفَّت الخبز ببعضه ، ثم دسَّته تحت يدي ولا وَلاَتْنِي ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. قال : فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ : أرسلك أبو طلحة ؟ قلت : نعم ، قال: بطعام ، قلت نعم ، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا ، فانطلقوا فانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة ، فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم ! قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبوطلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال : رسول الله ﷺ : هلمي يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ وعصرت أم سليم عُكَّةً فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقول ، ثم قال : ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة . فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً. (صحيح البخاري ، كتاب المناقب ١/ ٥٠٥)

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أتيت رسول الله ﷺ بتمرات، فقلت : ادع لي فيهن بالبركة، قال : فقبضهنَّ ثم دعا فيهن بالبركة ، ثم قال : خذهنَّ فاجعلهنَّ في مزود أو قال: في مزودك ، فإذا أردت أن تأخذ منهن فأدخِل يدك فخذ ولا تنثرهن نثرًا ، قال: فحملت من ذلك التمر كذا وكذا وسقًا في سبيل الله، وكنا نأكل ونُطعِم ، وكان المزود معلقًا بحقويِّ لا يفارق حقويِّ ، فلما قتل عثمان انقطع . أخرجه الترمذي في مناقب أبي هريرة ٥:٥٨٥ ، دلائل النبوة ٦/ ١٠٩.

الجسدية، وقدرة الله عزَّوجلَّ. وأما ازدياد عدد الخبز فحسب في معجزة سيدنا عيسى عليه السلام يدل على قدرة الله عزوجل ولا يدل على مزيته الجسدية.

نعم ! ومما يعترف به أنَّ ظهور هذه الأعمال على أيدي سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام يدل على تقربهما إلى الله، ولذلك تُسَمَّى هذه الأعمال معجزات. وهم جميعًا يشتركون في هذا، وتزيد على ذلك المزيةُ الجسدية في معجزة الرسول ﷺ.

## الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في شفاء المرضى

هكذا، فعودة الصحة على الفور إلى الرِّجل المنكسرة[1] والعين المصابة[2]، بمسح الرسول ﷺ إياهما، أجَلّ

---

(١) أخرج ابن السكن وأبو نعيم في (الصحابة) عن معاوية بن الحكم قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فأنزى أخي علي بن الحكم فرسه خندقاً فقصر الفرس، فدق جدار الخندق ساقه ، فأتينا به النبي ﷺ على فرسه، فمسح ساقه فما نزل عنها حتى برؤ . (الخصائص الكبرى ٢/ ١١٨)

(٢) عن حبيب بن فديك –ويقال : فويك –أنَّ أباه خرج به إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئًا ، فسأله ما أصابك ؟ فقال : وقعت رجلي على بيض حية ، فأصيب بصري ، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، فرأيته وهو يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة، وأن عينيه لمبيضتان.(الخصائص الكبري ٢/ ١١٥)

وأعظمُ من شفاء المرضى وحده؛ لأنه ليس هنا أكثر من أن الله عزَّوجل قد شفى عندما دعا الله سيدُنا عيسى عليه السلام، ولم تظهر بركة جسده فيه، وأما في معجزة الرسول ﷺ فيوجد الأمران: شفاء المرضى والمزية الجسدية، والفاعل الحقيقي في كل من هذه الأعمال هو الله عزَّوجل، إلاَّ أنَّ ظهور هذه المعجزة بواسطة جسد الرسول ﷺ يدل على أنَّ جسده مصدر خير وبركة.

## الموازنة بين معجزة انشقاق القمر ومعجزة سكون الشمس وعودتها

واعلموا أيها السادة ! أنَّ سكون الشمس لسيدنا يوشع عليه السلام[1]، وعودتها بعد غروبها لسيدنا اليسع عليه السلام أو لغيره من الأنبياء، وإن كانا معجزتين جليلتين إلا أنَّ معجزة انشقاق القمر[1] أَجَلُّ منهما وأعظم؛ إذ يتحقق في

(١) قال رسول الله ﷺ : «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن ، ولا آخر قد بنى بنيانًا ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات هو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صُلِّيَ العصر ، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئًا ، فحبست عليه حتى فتح الله عليه» مسند الامام أحمد رقم الحديث: ٨٢٣٨.

(١) أخرج البخاري عن أنس أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم ←

المعجزتين سكون الأرض أو شيء من حركتها المعكوسة وفقًا لمذهب فلاسفة «إنجلترا» وأتباع المدرسة الفيثاغورسية. وأعتقد أن القساوسة الإنجليز يتبعون مذهب بني جلدتهم، ولا يعترفون بالنظرية البطليموسية القائلة بحركة الأفلاك والشمس والقمر والكواكب. وإن كان الاختلاف في حركة الأفلاك سببًا لعدم قبول مذهبهم فالإجابة عنه أنَّه لا حاجةَ إلى إثبات السماء وعدمه وفقًا لمذهب الفلاسفة الإنجليز؛ فإن فرضنا الكواكبَ كلها حولَ السماء وفرضنا الشمس في مركز الكون، ثم فرضنا حركةَ الأرض حول الشمس فلا يُخِلُّ ذلك بنظريتهم ومذهبهم شيئًا.

## شق القمر خارق للطبيعة، وسكون الشمس ليس كذلك

وجملة القول: أنَّ معجزة سكون الشمس وعودتها بعد غروبها تتلخص – وفق مذهب الفلاسفة الإنجليز – في أنَّ

---

← آية فأراهم القمر شقتين [باب سؤال المشركين النبي ﷺ] وزاد أبونعيم عن طريق عبد الله بن مسعود « حتى صار فرقتين ، فرقة خلف الجبل »

وقال ابن كثير : قد أجمع المسلمون على وقوع ذلك –انشقاق القمر –في زمنه عليه الصلاة والسلام . وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع . وذلك مروي عن أنس بن مالك أوجبير بن مطعم ، وحذيفة ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين «راجع للتفصيل: البداية والنهاية ٣/ ١٢٩-١٣٢ ، دار المعرفة ، بيروت»

حركة الأرض تبدَّلت بالسكون أو بالحركة المعكوسة، إلاَّ أن ذلك ليس بأغرب وأعجب – لأجل قرب الأرض – من انشقاق القمر؛ لأنَّ التأثير على القمر البعيد عنا ملايين الأميال أكثر وأكبر من التأثير فيما تحت أقدامنا من الأرض.

علاوةً على ذلك فبين هذين التأثيرين من الفرق ما بين السماء والأرض؛ فتبدُّل الحركة بالسكون لا يصعب بقدر ما يصعب خرق الجرم المتين؛ لأن هذه الأجرام إن كانت تتحرك بإرادتها يُتَصَوَّر سكونها بإرادتها كما تُتَصوَّر حركتها بإرادتها، وإن كان يُحَرِّكُها مُحَرِّكٌ، فحينئذٍ تقتضي طبيعتها السكونَ، فاعتراء السكون عليها لا يصعب عليها؛ فترفَضَ قبوله. ولما كان الخرق يخالف الطبيعة كان صعبًا، ولو فرضنا القمر حيًا كان الخرق عليه أصعبَ صعوبةً، فانشقاق القمر – ولا شك – أعظم وأكبر من سكون الأرض.

## لا بُدَّ من محرِّكٍ لكل حركةٍ طبيعيّة أو قسرية

قِسْ على ذلك الحركةَ المعكوسة، أي إن كانت الأرض تتحرك بإرادتها، لا تَصْعُب عليها الحركة المعكوسة، ولما كانت حركتنا عن إرادة واختيار، فنحن نستطيع أن نسير أي

جهةٍ نشاء، وإنْ كانت الأرض يحركها محرِّك آخر، فمن الممكن حركتها المعكوسة بتحريك ذلك المحرك.

أما اعتبار محرك لا يُدْرِك ولا يَشْعُر، ولا يصدر عنه إلا حركة ذات جهةٍ واحدة، وتسمية ذلك طبيعةً؛ فذلك صنيع الذين ليس لهم من الإدراك والشعور من نصيب؛ لأنَّ الحركة لا تُتَصَوَّر إلا بأن تترجح جهة ويتعين جانب. وذلك لا يمكن إلا بالإدراك والشعور، فإن كانت الطبيعة مرجِّحةً، ثبت لها الإدراك والشعور، فكانت الحركة اختياريةً.

وإن كان المرجح إدراك وشعورَ أمر آخر كانت الحركة قسريةً، أي تكون الحركة بتحريك محرك آخر. وذلك هو معنى الطبيعة؛ فالطبيعة كلمة عربية، وكونها بمعنى المفعول يَدُلُّ على هذا المعني.

وجماع القول: أنَّ سكون الأرض أو حركتها المعكوسة – في المعجزة المذكورة – لا يعدلان انشقاق القمر، وزد إلى ذلك قرب الأرض وبُعْدَ القمر، والفرق بين تحتية محلِّ التأثير وفوقيته.

## إجابة الدعوة لا تَدُلُّ على الفضل

ولو فرضنا أنَّ السادة المسيحيين يقولون بحركة الشمس، كان الأمر كذلك، أي إنَّ سكون الشمس أو حركتها حركةً معكوسةً – سواء كانت اختياريةً أو قسريةً – ليسا بأصعبَ من شق القمر، إلاَّ أنَّه يُعْكَسُ هنا قرب محلِّ التأثير وبُعْده؛ لأنَّ الشمس أبعد من القمر.

ويمكن وقوف المتحركين بالإرادة بالأمر أو النهي أو الاستدعاء؛ فربما يقف الناس والبهائم بالنداء أو يسيرون. وأما خرق جسم من بعيد فلا يُتَصوَّر. فإن كانت الشمس تتحرك بإرادتها، فوقوفها باستدعاء يوشع عليه السلام لايدل على تأثيره وقوته، بل يدل على أنَّ الشمس قد أجابت دعاءَه؛ فإجابة شخص دعاءَ شخص، لا يقتصر على فضل الداعي؛ لأنَّ الله يجيب دعاء عباده فهل هم فاقوا الله؟ ويجيب دعاء الكفار فهل هم عادوا مقربين إلى الله؟

وهكذا ربما يسمع الملوك والأمراء شكوى المساكين والفقراء، فهل فاقوهم في الفضل؟ كلا ثم كلا ! بل الدعاء والالتماس لأمرٍ يدل على ضعف الداعي وقِلَّة حيلته فيه،

ولا سيما عند الدعاء.

## الشمسُ تتحرك بإرادتها

وإن كانت الشمسُ تتحرك بمحركٍ آخر، فإسكانها كان بيد ذلك المحرك. واستدعاء سيدنا يوشع عليه السلام وإن كان من الشمس ظاهرًا إلا أنه كان من ذلك المحرك حقيقةً، وظاهر ألفاظ الحكاية يدل على أنَّ استدعاءَه كان من الشمس؛ فحينئذ يثبت أنَّ الشمس تتحرك بإرادتها.

## الخرق والالتئام في الأفلاك

أضف إلى ذلك، ما ذهب إليه حكماء الإغريق من أنَّ زوالٍ حركة الأفلاك ليس مستحيلاً؛ لأنهم يرون حركتها دائمةً لا ضروريةً، ويعرف المِلِمُّون بفن المنطق أنّ عدم الضرورة مستحيل، وعدمَ الدوام ليس بمستحيل. ويقول حكماء الإغريق بأن الخرق والالتئام في الأفلاك من الكواكب والشمس والقمر مستحيلان، وبقاءَها على حالتها ضروري. وفي الواقع أنَّ الخرق والالتئام ليسا بمستحيلين، وبقاءها على حالتها ليس بضروري. وعلى كل حال فقد عُرِفَ من ذلك أن الخرق والالتئام أصعب من السكون

والحركة المعكوسة؛ مما دَفعَ أمثال هؤلاء الحكماء إلى القول باستحالة الخرق والالتئام.

## الموازنة بين معجزة انشقاق القمر وبإشارة سيدنا محمد ﷺ ولين الحديد في يد سيدنا داؤد عليه السلام

ثم وازنوا أيها السادة ! بين انشقاق القمر ولين الأحجار والحديد في يد سيدنا داؤد عليه السلام، وانظروا ما بينهما من البون البعيد والتفاوت البين.

## تأثير صحبة الرسول ﷺ

إنَّ اليد البيضاء لسيدنا موسى عليه السلام لمزيةٌ لا ريب فيها ولا شكَّ، وأما الرسول ﷺ فقد ظَهَرَ النور[1] على رأس عصا أحد أصحابه في الليلة الظلماء بفضل صحبته، عندما همَّ بالانصراف من عنده، وكان معه رجل آخر، فلما

(١) قال أنس رضي الله عنه : كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة ، وهي ليلة شديدة الظلمة ، ثم خرجا وبيد كل واحد منهما عصا ، فأضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها ، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه ، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله . «الخصائص الكبرى ٢/ ١٣٥» «صحيح البخاري ١/ ٥١٤»

تفرقا وأخذ كل منهما طريقه صحبهما ذلك النور.

ثم فكروا أيها السادة ! إن عادت يد سيدنا موسى عليه السلام بيضاءَ بعد إدخالها في الجيب المتصل بالقلب المنوَّر، فلا غرابة فيه لأمرين: الأول أنه نبي، والثاني اتصال الجيب بالقلب المنور، فكما أن الأجسام تسري فيها الحياة المناسبة لها لاتصالها بالأرواح، كذلك لا يَبْعُد أن تعود يد سيدنا موسى عليه السلام بيضاء لاتصالها بالقلب المنوَّر. وأما هذان الرجلان فلم يكونا نبيين، ولم تكن العصا متصلةً بالقلب المنوَّر، ولم تكن فيها قابلية التأثر مثل قابلية الجسم بالنسبة للروح؛ بل كان ظهور النور على رأس العصا بفضل صحبة الرسول ﷺ ليس إلا.

## قصة أخرى لتأثير صحبة الرسول ﷺ

كذلك، فإن لم يحترق جسد سيدنا إبراهيم عليه السلام بالنار التي كان أوقدها نمروذ، لا يُسْتَغرب بقدر ما يُسْتَغرب ألاَّ تحترق بالنار سُفرة الرسول ﷺ[1] التي كانت

(١) أخرج أبونعيم ، عن عباد بن عبد الصمد قال : أتينا أنس بن مالك فقال : يا جارية هلمي المائدة نتغدى ، فأتت بها ، ثم قال : هلمي المنديل ، فأتت بمنديل وسخ ، فقال : اسجري التنور ، فأوقدته فأمر بالمنديل فطرحته ←

عند أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد اتفق مرارًا أنَّه كلما علاها الوسخ والقذر أدخلها النار، فلما احترق ما عليها من الوسخ أخرجها، وقد رُوِيَت هذه القصة في المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي، وفي كتب القصص. فكِّروا أنَّ عدم احتراق رجلٍ لا يدعوا إلى العجب بقدر ما يدعو إلى العجب عدم احتراق السفرة من ألياف النخيل، التي لا يبعد أن يعلوها الدسم. ثم بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والسفرة من الفرق ما بين السماء والأرض. أما سيدنا إبراهيم عليه السلام فهو نبي خليل الله، وأمَّا السفرة فليس إلا أنَّ النبي وضعها بين يديه وتناول عليه الطعام بين الفينة والفينة.

## المعجزات التي جاء ذكرها في القرآن، قطعية الثبوت

وفذلكة الكلام أنَّ الرسول قد فاق غيره من الأنبياء والرسل في المعجزات العملية كذلك. ثم إنّ المعجزات التي

---

← فيه ، فخرج أبيض كأنه اللبن ، فقلنا : ما هذا ؟ قال : هذا منديل كان رسول الله ﷺ يمسح به وجهه، فإذا اتسخ صنعنا به هكذا ؛ لأن النار لا تأكل شيئًا مرَّ على وجوه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . (الخصائص الكبرى ٢/ ١٣٤)

جاء ذكرها في القرآن هي قطعية الثبوت، لا يُساويها حادث من الحوادث التأريخية؛ لأنه ليس هنا كتاب سوى القرآن نُقِلَ نقلاً متواترًا، وحفظه ملايين من الناس في صدورهم، بل ويُتَوَقَّع ألاَّ يُوْجَد رجل أو أكثر في العالم يحفظ أيَّ كتاب.

## الأحاديث النبوية تُساوي التوراة والإنجيل

علاوةً على ذلك فقد تُساوي الأحاديث النبوية التوراة والإنجيل، بحيث أنَّ اليهود والنصارى يقولون بأنَّ الكتب المقدَّسة لديهم، معانيها ملهمة من الله، وألفاظها غير ملهمة منه. ويقول المسلمون – كذلك – بأن الأحاديث النبوية معانيها منزَّلة من الله، وألفاظها غير منزَّلة منه، ولذلك يفرِّقون بين القرآن والحديث. وإنما تجب قراءة القرآن في الصلاة دون الأحاديث؛ لأنَّ الصلاة هي مناجاة مع الله عزَّوجلَّ، وينبغي أن تكون مناجاة الله عزَّوجلَّ بألفاظٍ منزَّلة من عنده. ولو كان لي متَّسعٌ من الوقت لأشبعت الموضوع بحثًا وتحقيقًا.

وبالرغم من المساواة في الأحاديث النبوية والتوراة والإنجيل من هذه الناحية، تمتاز الأحاديث عنهما بأنها

متصلة الأسانيد من أولها إلى آخرها معلومة الرواة. وبالطبع إنَّ هذا الأمر مزية أجدر بالاعتناء وأحرى.

علاوةً على ذلك فقد جمع العلماء تراجم الرواة وأحوالهم إلى العهد الذي تواترت فيه الأحاديث، فدوَّنوا في هذا الفنِّ كتبًا كثيرة.

نعم! يمكن أن تكون بضع أحاديث غير موصولة الأسانيد، كالتوراة والإنجيل، فلما حاورنا مع المسيحيين فلا بأس بالاستدلال بها. ثم لا يُحِيرُ المنصفون منهم جوابًا.

## أهل الكتاب لا يُنْصِفُون

وهل من عدل أهل الكتاب أن تَثْبُتَ لديهم معجزات سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا عيسى عليه السلام بالروايات غير المسندة المذكورة في التوراة والإنجيل، وألا تَثْبُت معجزات الرسول ﷺ بالأحاديث المتصلة الأسانيد؟. ومن العجب أنهم يجادلون –مع ذلك– في الموضوع جدلاً عقيمًا.

## المعجزات لا يجب أن يَرِدَ ذكرها في القرآن

فإن قال قائل: إن هذه المعجزات لم يَرِدْ ذكرها في القرآن قيلَ له: هل يجب ورود ذكرها في القرآن للتصديق بها،

بالدليل العقلي أو النقلي؟ من المفارقة العجيبة أنهم يؤمنون الإيمانَ كلَّه بالحوادث التاريخية – التي يعتمد مؤلفوها على السماع غالبًا، ولا ينتقدون رواتها، وليست لها أسانيد متصلة إلى مؤلفيها – ويرفضون الأحاديث النبوية.

من معجزات القرآن:

علاوةً على ذلك، فإن أراد بقوله أنه لم يرد ذكر أي معجزةٍ في القرآن، فذلك كِذْبة بلقاء؛ لأنَّ انشقاق القمر، ووجود الخلفاء في الإسلام، وغزو فارس، وغلبة الروم وغيرها من النبوءات الكثيرة قد ذكرها القرآن. وإن أراد بقوله أنَّ القرآن لم يذكر المعجزات كلَّها، قيل له: يكفي ذكر معجزةٍ واحدة في القرآن للإيمان بها.

## عماد صحة المعجزات

على أنَّ عماد صِحَّة الرواية على الإسناد، لا على ورود اسم الله فيها، وإلا وجَبَ أن يعترف النصارى بصحة الأناجيل كلها – سوى الأناجيل الأربعة – التي يرفضونها ويُخطِّئونها. ولما تعيَّن أنَّ عماد صحة الرواية على الإسناد، وجب الاعترافُ بصحة الأحاديث النبوية، ورَفضُ التوراة والإنجيل.

وإن قال قائل: إنَّ القرآن رفَضَ تقديم المعجزات عندما طالبه المشركون، أقول: إنّ هذا الرفض مثل ما جاء في الإنجيل من رفض تقديم المعجزات.

## لماذا لم يُسَجَّلْ انشقاقُ القمر في كتب التاريخ؟

وإن قيل: لو كان قد وقع حادث انشقاق القمر، لحدثت ضجَّةٌ في العالم كله، ولِسَجَّله التأريخ، أقول: إنّ انشقاق القمر ليس معجزةً وحدها دون غيرها، فيؤدي عدم ثبوته إلى شيء من الضرر.

على أنَّه إن وجب حدوثُ ضجَّة في العالم كله على مثل هذه الحوادث، وذكرُها في كتب التاريخ، فأين حدثت ضجَّةٌ، وأيُّ كتبِ التاريخ سجَّلت ذلك الظلام الذي ساد يومَ تعليق سيدنا عيسى عليه السلام على أعواد المشنقة، وطلوع النجم يوم مولده، وسكون الشمس إلى منتصف النهار، وهلُمَّ جرًّا.

علاوةً على ذلك، فإنّ بين حوادث الليل وحوادث النهار لفرقًا شاسعًا في باب الاطلاع العام، وأما صيرورة النهار ليلةً ظلماءَ فلابد أن يطلع عليه النَّاس، وأما حادث

انشقاق القمر فلا يطلع عليه إلا من كان مستيقظًا في الليل وناظرًا إلى القمر، وقلما يتفق للمرء أن يكون مستيقظًا في الليل وناظرًا إلى القمر. ولو فرضنا وقوع هذا الحادث في فصل الشتاء كان الاطلاع عليه أكثر استبعادًا.

قد رُوِي أنه وقع هذا الحادث بعد طلوع الشمس بقليل؛ فحَالَ جبل حراء بين قطعتين من القمر؛ فلا يبعد – إذًا – إن لم يكن يطلع القمر إلى ذلك الحين في البلاد الغربية، كما لا يبعد أن تختفي قطعة خلف قطعة أخرى في بعض البلاد؛ فلم يُشاهَد فيها انشقاقُ القمر.

وأما الهند فلما كان فيها ارتفاع القمر عندئذ أكثر، كان فيها احتمال مشاهدة هذا الحادث والاطلاع عليه أكثر نسبيًا من البلاد الأخرى؛ إلا أنه كما كان في الهند ارتفاع القمر عندئذٍ أكثر، كذلك كان يكون قد انتصف الليل عند ذاك، ومن يسهر إلى منتصف الليل؟

على أنَّ أهل الهند لم يُعْنوا بكتابة التأريخ منذ قديم الزمان، مع هذا فقد جاء في كتب تاريخ الهند[1] أنَّ أحد

(١) قال ابن كثير: قد شُوهِدَ ذلك – انشقاق القمر – في كثير من بقاع ←

ملوكها قد شاهدَ هذا الحادث بأم عينيه.

هذا وتكفي هـذه الكلمـة الـوجيزة للمنـصفين، وأمـا الظالمون المكابرون فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

❊ ❊ ❊

➜ الأرض ويقال: إنه أرخ ذلك في بعض بـلاد الهنـد، وبني بنـاء تلك الليلـة وأرخ بليلة انشقاق القمر. (البداية والنهاية ٣/ ١٣١)

# فلسفة اللُّحومِ المباحةِ والمحرَّمةِ في الإسلام

## لماذا أُحِلَّ اللحم؟

ربما يختلج في صدور السادة الهندوس: لماذا أُحِلَّ اللحم؟ أليس ذبح الحيوانات لأكل لحومها بظلم عظيم؟ وكيف يجوز إتلاف عدد كبير من النفوس لنفس واحدة؟ وهذا الإتلاف ليس إلا للحصول على لذة يسيرة، ولم تقتصر الحياة الإنسانية على أكل لحوم الحيوانات.

## استحلال اللحم ليس بظلم

فالإجابة عما يتساءلون هي أننا إذا أصبنا الحيوانات بسوء من غير إذن من الله عزَّوجلَّ، كانَ ظلمًا ولا ريب، ولكن ضَعُوا في اعتباركم أنَّنا نذبحها بإذن من صاحبها: الله عزَّوجلَّ؛ فإن لم يَجُز ذبح الحيوانات بإذن من الله، فذلك يعني أن الله عزَّوجلَّ ليس يملكها ولا يجوز له التصرف فيها. فقولوا لنا: أليس من فداحة الظلم ألاَّ يملك الصاحب أن يتصرف فيما يملكه؟ أو ليس من المفارقة العجيبة أن

يكون ذبح الحيوانات ظلمًا، وألا يكـون نهـيهُم اللهَ عزَّوجـل عن الإذن بذبحها ظلمًا؟ وليت شعري كيف يستحقون عـلى الحيوانات الركوب والحمل واستدرار اللبن؟ !

## أكل اللحم يجدر بالإنسان والحيوان كليهما

وإن كانوا يرون أنَّ الله عزَّوجلَّ يملـك الحيوانـات، إلا أنه لم يكن يجدر به أن يأذن للإنسان بذبحها.

فالإجابة الأولى عن هذا التساؤل، هي أنَّ «الجدارة» إن كانت عبارةً عن العمل حَسَبَ الاستحقاق؛ فليـت شـعري أيُّ شيء في العالم لـيس لله عزَّوجـلَّ اسـتحقاق عليـه، وأيُّ استحقاق ليس لله عزَّوجلَّ على خلقه.

وإن كانت «الجدارة» عبارةً أنـه كـما أنَّ المـرآة والحجـر يتفاوتان في القابلية؛ فتمنح الشمس المرآة النور أكثر مما تمنح الحجر، وهذا هو الجدير لتفاوتهما في القابلية، وإن كان الأمر خلاف ذلك كان غيرَ جديرٍ.

فالإجابة عنـه أنَّ الإنـسان يـستحق أن تَحِـلَّ لـه لحـوم الحيوانات؛ فتقويض المبنى القـديم، وتـشييد المبنـى الجديـد مكانَه لن يكونَ «غيرَ جدير» بأن يقول أحد إنَّ المبنى الجديد

لم يكن جديرًا بالبناء. كذلك ذبح الحيوانات، وبناء الجسم الإنساني بلحومها كان أجدر وأحسن.

وبالجملة إنَّ هدم «الشيء الدون» والاتخاذ منه «شيئًا أعلى» لم يكن غير جدير، بل هذا هو الأجدر والأحسن. أما الإنسان فيجدر به بحيث أنَّ الأغذية الأخرى مادَّة بعيدة له، وأنَّ اللحم مادةً قريبة له؛ فلا عجب أن يتولد اللحم الكامل من اللحم؛ لأنه يُرْجَى ذلك بعد إخراج الفضلات من اللحم وتنقيته منها.

أما الحيوان فيجدر به بحيث أنَّ لحمه كانَ قِوَامًا لـ«الجسم الحيواني» من قبلُ، وصار الآن قوامًا لـ«الجسم الإنساني»؛ مما يعني أنَّ الحيوان كان مركبًا للروح الحقيرة من قبلُ، وصار الآن مركبًا للروح العالية. وطبيعي أنه لا عيبَ على التدرُّج في مراحل الحسن.

## أكل اللحم تقتضيه طبيعة الإنسان

على أنَّ الإنسان أُعْطِيَ «الأنياب» كالأسد والنمر والذئب، مما يشير إلى أنَّ غذاءه الأصلي هو اللحم، ولا يَقِلُّ ذلك عند أولي الألباب عن الإذن بأكله؛ فلكل عضوٍ من

الأعضاء التي أُعطِيَ الإنسان إياها وظيفةٌ خاصةٌ؛ كالعين للرؤية، والأذن للسَّماع مثلاً؛ فنحن مأذونون بالرؤية والسماع، وقس على هذا الأنياب.

## الفرق بين اللحوم المباحة والمحرَّمة

ومن المسلَّم أنَّ أنواع الحيوانات تتفاوت فيما بينها؛ فلحم كلِّ نوع من الحيوانات يختلف عن الآخر في التأثير، فإذا كان لحم حيوان مفيدًا كان مُبَاحًا، وإذا كان لحم حيوان ضارًّا كان محرَّمًا بقدر ما يضُّر؛ لأنَّ الله عزَّوجَلَّ قد راعى في أوامره ونواهيه مصالح عباده ومضارَّهم، ولم يُرَاعِ مصالحه ومضارَّه؛ لذلك حُرِّمت لحوم الخنزير والسباع؛ لأن الخنزير نجِسٌ وقليل الحياء لا يَغَارُ على الضِّراب بأنثاه على مشهد منه؛ فحُرِّم الخنزير، حتى لا يَقِلَّ الحياء والغيرة في آكليه، وتتنجَّسَ أرواحهم وقلوبهم؛ مما يُولِّد فيهم الأفكار النجسة. وأما السباع من الحيوانات فقد حُرِّمت لسوء طباعها، حتى لا تتولَّد قسوةُ الطباع في آكليها؛ لأنه كما أنَّ الغذاء الحار يُولِّد الحرارة، والغذاء البارد يُوَلِّد البرودة فكذلك قيسوا خواصَّ أنواع الحيوانات وسوء طباعها.

## دم كل حيوانٍ جدير بالتحريم

كما أنَّ لحوم معظم الحيوانات جديرة بالتحريم، فكذلك دم كل حيوان جدير بالتحريم؛ لأنه كما أن البراز والبول لا يَشُكُّ في نجاستهما أحد من الناس – لما فُطِروا على النفور والكراهية منهما – ولا يحتاجون إلى الإعلام بهما، فكذلك الدم – لما فطروا على النفور منه – جدير بالتحريم.

## الدم فَضْلة كالبراز

ولِمَ لا يكون الدم جديرًا بالتحريم؟ فكون البراز فَضلةً يدلُّ على أنه ليس غذاءً، إنَّما الفَضْلة عبارة عما فَضَلَ من الغذاء ودُفِعَ إلى المخرج، وإن لم يخرج لأسباب خارجية فعلى الأقلِّ أنه يُشير إليأنه لو كان غذاءً لما دُفِعَ من المِعدةِ، فَضْلاً عن إعادته إليها. وكذلك تهيئة الدم للخروج، وخروجُه كلما وَجَد المخرج يدل على أنَّه فَضْلةٌ في الواقع حُبِسَتْ في الأبدان.

## لماذا لم يجعل المخرج للدم كمخرج البول والبراز؟

إلا أنَّ البول والبراز يستحيلان إلى الغذاء، أي يستحيلان إلى السماد، ومنه إلى نوع من الغلَّة والحبوب،

كذلك الدم يستحيل إلى اللحم، لا فرق بين البراز والدم في الاستحالة إلا أنَّ الدم يستحيل إلى اللحم داخلَ الجسم، والبراز يستحيل إلى الغذاء خارج الجسم، ثم إنَّ الدم واللحم لا واسطةَ بينهما، إمَّا الدم أو اللحم. وأما البول والبراز والغلَّة فبينهما وسائط: السِّماد ثم التراب، ثم الخضرة، ثم الغلَّة. وهذه الاستحالة تتم خارج الجسم الحيواني؛ فجُعِلَ لكل من البول والبراز مخرج. ولما كان الدم يستحيل إلى اللحم داخِلَ الجسم لم يُجْعَلْ له مخرج.

## الدم يُشْبِهُ البول والبراز

ثم إنَّ هذا الفرق لا يَضُرُّ كونَ الدم فَضْلةً؛ بل وكما أنَّ البول والبراز حُشِيَا في الأمعاء حتى لا تتلوَّث بقية الجسم، الأمر الذي يجعل أولي الألباب يُدرِكون أنَّهما لما كانا نجِسَينِ وُضِع لهما هذا النظام، فكذلك الدم حُشِيَ في العروق، مما يُشير إلى نجاسته.

أما البلغم والمخاط – وإن كانا فَضْلَتَيْنِ – فالفرق بينهما وبين البراز والبول والدم، أنها – البراز والبول والدم – يشترك فيها جميع أفراد الإنسان بل وأفراد الحيوان، أمَّا

البلغم والمخاط فمعظمهم مُعَافُون منهما، وقليلون منهم مصابون بهما؛ ثم إنَّ المعافين يُعَدُّون أصحاء والمصابين يُعَدُّون مرضى، مما يدل على أنَّهما فَضْلَتان ناتجتان عن الضعف في الجهاز الهضمي الذي من وظيفته أن يحوِّل الدم إلى اللحم والأجزاءِ البدنية، حتى يعود الجسم بشكل يُرَاد. ففي الواقع أنهما من المواد الغذائية؛ لذلك لم يُجعَلْ لهما مخرج كالبراز والبول، ولم يُحْشَيَا في العروق كالدم.

وأما الفم والأنف اللذين يَبْدُوان مخرجَينِ للبلغم والمخاط، فيصِحُّ أن نسَمِّيهما مَخرجَين، من حيث أننا نشاهد البلغم والمخاط يخرجان منهما، ولكننا لا نسمِّيهما مخرجَين من حيث أنهما مخرجانِ لخروج البلغم والمخاط وحدهما، كما أنَّ المبرز والمبال مخرجان لخروج البراز والبول وحدهما؛ فمن لا يعرف أنَّ الفم للأكل والنطق، وأنَّ الأنف للشمِّ؟

وجملة القول أنه لم يُجْعَلْ لهما مخرجان كالبول والبراز، وليس المراد حبسهما كالدم؛ لذلك فهما فضلتان صورةً لا حقيقةً، بل هما فضلتان ناتجتان عن الضعف في الجهاز الهضمي.

ولذلك لم يُجعَلْ لهما وعاءَان كأوعية البراز والبول والدم، حتى لا تتلوث أجزاء الجسم الأخرى؛ لذا فإن لم يكونا نَجِسين فهما ليسا غذاءً؛ بناءً على ذلك نفس الإنسان لا تكرههما كراهتَها للبراز والبول والدم؛ فلا يمسهما مسًا، ولا ترغب فيهما رغبتَها في الغذاء من اللحم والحبوب؛ فيتغذّى بهما.

أما الدم فماذا يمنع القول بنجاسته؟ فهو لا يجري في العروق إلا طلبًا للمخرج، وإلا لكان ساكنًا كاللحم والجلد. أما البراز والبول فيظفران بمخرجين، وينجحان في حركتهما، فيخرجان. وأما الدم فيبحث عن مخرج، فلا يظفر به، فَيُخفِقُ في حركته ولا يخرج.

## لماذا لم يُجْعَل للدم مخرج؟

لماذا لم يُجْعَل للدم مخرج؟ يبدو أنَّ له سببين: السبب الأول: هو أنَّ المراد تحويل الدم إلى اللحم ليصير بديلاً لما يتحلَّلُ من الجسم، وهذا التحويل يتم في داخل الجسم، فلو كان للدم مخرج في الجسم لما بقي فيه شيء منه، فضلاً عن استحالته إلى ما يصير بديلاً لما يتحلل من الجسم. أما الآن

فلما لم يكن له مخرج فشأنه أنه عند ما يجد مخرجًا لجراحةٍ أو افتصادٍ أو احتجام يندفع للخروج اندفاعًا. ثم إنَّه لا ينقبض كما ينقبض البراز في الإمساك، ولا يندفع إلى مخرج خاصٍ كالبراز؛ فإن البراز لا يتصاعد إلى فوقُ، مع أن الحَلْق مخرج مفتوح، وأما الدم فيندفع إلى الرأس إذا جُرِح كما يندفع إلى الرِّجل إذا جُرِحت؛ فإذا كان أمر الدم هكذا – فيما لم يكن له مخرج – فكيف به إذا كان له مخرج؛ فلا شكَّ أنه لا يبقى في الجسم أصلاً.

والسبب الثاني: هو أنَّ الدم – لما فيه من الحركة الطبيعية – سبب لحركة الجسم، فإذا سكن الدم في الجسم كما يسكن في الأيدي والأرجل أحيانًا، أو جفَّ كما يجف بالضعف أو النَّقَهِ أو الهُزال، أو قلَّ، فكلُّ ذلك يؤثر على حركة الجسم تأثيرًا كبيرًا؛ فعُلِمَ من ذلك أنَّ حركة الدم الطبيعية تُسَبِّبُ للجسم الحركةَ الإرادية.

## الردُّ على شُبْهةٍ

ومثله كمثل البخار، فالحركة الطبيعية المستقيمة للبخار تسبب الحركةِ الإراديةِ المستديرةِ لعجلات القاطرة؛ والحركةُ

الإراديـةُ المـستديرةُ للعجـلات تـسبب الحركـة المـستقيمة للركـاب. فـالاختلاف في جهـات الحركـات، وفي إرادة وطبيعة الأسباب المحركة لا يضُرُّ في هذا الأمر؛ فلا غـرو في أن تكون الحركـة الطبيعيـة للـدم سـببًا في الحركـة الإراديـة للحيوانات، فالـدم إذا تحـرك في الأعـضاء طـولاً، تحركـت أجسام الحيوانات عرضًا.

فيبدو أنَّ هذين الأمرين هما اللذان لم يجعل الله عزَّوجَلَّ لأجلهما مخرجًا للدم مع كونه فضلةً. وجملـة القـول أنَّ الـدم نجس طبيعي، فعدم كون المخرج له لا يبطل كونه فَضْلَةً.

## كل ميتة نجسة ومحرَّمة عقلاً

فلما ثبت من البحث المتقدِّم ذكرُه أنَّ الدم نَجِسٌ ثَبَـتَ – بالتالي – أنَّ كل ميتة نجسةٌ ومحرَّمة؛ لأنَّ الحيوان إذا مـات مـن غير ذبحٍ سرى دمه في لحمه، بحيث لا يمكن فصل الـدم عـن اللحم؛ فكان طبيعيًّا أن يتنجَّس اللحم بسراية الدم فيه. نعم لو أمكنَ فصل الدم عن اللحم لطَهُرَ اللحم بعد فصل الدم عنـه، كما يطهر الثوب بعد فصل البول والبراز عنه بالماء.

فلما كان الأمر كـذلك، أي لا يمكـن فـصل الـدم عـن

اللحم، فلا سبيل إلى تحليل لحم الميتة؛ لأنَّ الغذاء يولِّد اللحم: الطاهرُ الطاهرَ والنَّجِسُ النجِسَ، كما أشرت إليه سابقًا.

وهكذا الروحُ الهوائيةُ[1]؛ فكما تكون الروح الهوائية كذلك تُفاضُ النفس الناطقة عليها، أو على الأقل أنَّ النفس الناطقة – بعد أن تُفَاض – تتأثر بنجاسة الروح الهوائية بحكم الاختلاط بها.

## هل الروح الهوائية جوهر الغذاء أم من قبيل استحالته؟

إنَّ استحالة شيء إلى شيء تعني أنَّ المادة الأصلية تبقى كما هي، وأنَّ الصورة النوعية[2] وتأثيرها تتغيران. وأما استخراج جوهر الشيء أو تحليل الأشياء المركبة، ففي كلا الوجهين تبقى المادة كما هي، وإنَّما يتغيَّر التأثير.

ففي الوجه الأول أي في حالة استخراج جوهر الشيء يصير التأثير أقوى من ذي قبل. كما نلاحظ في جواهر

(١) الروح الهوائية : هي البخار المتصاعد المنتشر في الجسم كله المتولد من حرارة الدم الجاري نحو القلب.

(٢) الصورة النوعية : هي جوهر تختلف به الأجسام أنواعًا من الحيوان والنبات والجماد.

الأدوية. وفي الوجه الثاني – وإن كان التأثير المركب لا يبقى – يبقى تأثير كل عنصر من العناصر المركبة بعد التحليل، كما كان موجودًا ضمنَ التأثير المركب.

على هذا، فلا يمكن أن تُثَار هذه الشُّبهةُ بأنَّ كلاً من البراز والبول والدم يطهر بعد الاستحالة، وأنَّ الروح الهوائية المولَّدة من الغذاء النجس لا تطهر حتى بعد التحول والاستحالة، وإنما هي تبقى نجِسةً.

وذلك لأنّ الروح الهوائية إما جوهر الغذاء أو من قبيل تحليل العناصر أي المركبات العنصرية؛ ولذلك يتصور تحليل العناصر. والحق أنَّ الروح الهوائية هي جوهر الغذاء صاحبة تأثير العناصر الأربعة. وذلك يَدُلُّ – عند أولي الألباب – على فضل الإنسان، والفضلات من البول والبراز والدم تشير إليه كذلك.

على كل ففصل الكمية الكبيرة من البراز والبول والدم عن الغذاء يَدُلُّ على أنَّ تولُّدَ الروح الهوائية من الغذاء، ليس من قبيل الاستحالة؛ فلو كان تولُّدها من الغذاء استحالة لما حُرِّمَ تناولُ الأغذية المحرمة، وإنَّما جاز تناوُلُها كالأشياء

المباحة.

فإن لم يكن ذلك استحالةً، فالبراز والبول والميتة، التي يسري فيها الدم، لن تكون مباحةً قطعًا.

ثم إنَّ الدم هل يسري في اللحم بعد الموت أم يستحيل إلى اللحم؟ فالإجابة عن هذا التساؤل بأنَّ الاستحالة تحتاج إلى القوة الهاضمة والمحيلة، وقوى البدن كلها كالسامعة والباصرة وغيرهما من القوى الحيوانية تختص بالحياة؛ وذلك بأن الأعضاء الحيوانية كالعين والأذن قابلة للقوى بمثابة المرآة للنور، كما أنَّ النور الأصلي يكون في الشمس لا في المرآة، كذلك القوى الحيوانية تكون في النفوس الحيوانية لا في الأعضاء؛ ولذلك فالمرآة بحسب النور – إذا لم تُمِدَّها الشمسُ بالنور – ضائعة، كذلك الأبدان الحيوانية بحسب القوى الحيوانية – إذا لم تصحبها العناية الروحانية – ضائعة عاطلة؛ إذًا فلا يمكن أن يستحيلَ الدم إلى اللحم بعد الموت، وإنما هو يسري فيه. ولذلك لا يخرج الدم إذا قُطِعَ الجسم بعد الموت. فلما سرى الدم في اللحم تنجَّسَ اللحم حتمًا، على هذا فقد حُرِّمت الميتةُ، ووجب ذبح الحيوان.

## لماذا يجب قطع الحلق في الذبح؟

ولما كان الحلق مجمع العروق، والأعضاء الأخرى ليست كذلك، وجب قطع الحلق في الذبح بقدر المستطاع.

ويبدو من البحث المذكور أعلاه أنَّ الدم هو السبب الرئيس في حرمة الميتة؛ ولكننا إذا تأمّلنا وجدنا أنَّ ذلك ليس مطلقًا؛ فالحيوان الصحيح الجسم إذا قُتِلَ بحيث لا يخرج الدم منه، كان محرَّمًا بسبب عدم خروج الدم منه، وكان الدم سببًا رئيسًا في تحريم هذا الحيوان، وأما الميتة التي فارقتها الروح بسبب النفور الطبيعي فكان الموت سببًا رئيسًا في حرمتها.

## تحريم الميتة لأسباب الموت الأخرى سوى الدم

بيان هذا الإجمال أنَّ الموت له أسباب كثيرة، وهي تندرج ضمن قسمين، الأول: أن يكون سبب الموت أمرًا داخل البدن. والثاني: أن يكون أمرًا خارج البدن. فالثاني هو القتل بأسباب مختلفة. وأما الأول فله وجهان: أحدهما المرض، وثانيهما انتهاء العمر الطبيعي. فإذا تأملنا في هذين الوجهين وجدنا أنَّ الروح الحيوانية تنفر من البدن – إذا

انتهى عمره الطبيعي – بعد ما تنـزل إليه من العـالم العلـوي وتَحُلُّ فيه وتأنس به وتُحِبُّه وتعيش معه مدةً. وأما القتل ففيـه استخراج الروح بالجبر.

وخلاصة القول أنَّ انعكاس الشمس في المرآة هو ثمـرة قابلية المرآة، كذلك علاقة الروح مع البدن هي نتيجة قابليـة البدن؛ فلما كان الأمر كذلك لـزِمَ القـول بـأنَّ هـذه العلاقـة الخفية هي كعلاقة المغناطيس مع الحديد. وهـذه العلاقـة – إذا صَحِبَها الشعور والإدراك – هي المحبة.

فعلاقة الحب هذه تتجلى في نزول الروح إلى البدن من العالم العلوي والعيش معه مدةً؛ فإن تمَّ استخراج الروح بالجبر فذاك، وإلا فهل من سبب في مفارقة الروح البدنَ إلا النفور الطبيعي؟ وأضف إلى ذلك ما يطرأ على البدن بانقضاء العمر الطبيعي؛ فتتغير حالة البدن الابتدائية بحالة معاكسة لها كليًا، فيتغير النموُّ ذبولاً والطراوةُ جفافًا والنعومة خشونةً؛ إذًا فلا عجب ألا تأنس به الروح وأن تنفر منه نفورًا.

فإن كان النفور في هذه الحالة فـالنفور في حالـة المـرض أولى وأحرى؛ لأنَّ المرض تتغير فيـه حالـة الاعتـدال بحالـة

مضادة، وهي المرض. وبالطبع حالة الصحة محبوبة؛ فالحالة التي تُسَمَّى بالمرض تكون – ولا ريب – جديرة بالنفور والكراهية.

إذًا فالميتة أشدُّ حرمةً من الدم؛ لأنَّ سبب حرمة الدم هو النجاسة، والنجاسةُ مردُّها إلى النفور الطبيعي إذا كان الطبع سليمًا. ومعلوم أنَّ البدن لا يخلو من الدم في الحياة، بل وفي أيام الشباب التي هي خلاصة الحياة يكثر الدم كثرةً لا تُتَصَوَّر في غيرها من أيام الحياة؛ فبقاءُ علاقة الروح مع البدن كما هي – بالرغم من كثرة الدم في أيام الشباب – يَدُلُّ على أنه لا يحدث في البدن بالدم ما يحدث فيه بانقضاء العمر الطبيعي أو تأثير مرض الموت، وإلا لكان النفور في أيام الشباب بدل أيام انقضاء العمر الطبيعي وحالة المرض.

على كل فمهما يفوق الدم الميتة أو الميتةُ الدمَ في التحريم، فهما محرَّمان بمقتضى الإنصاف؛ إلا أنه قد ثبت من البحث المذكور أعلاه أن البدن يكون محرَّمًا بالذات في حالة الموت الطبيعي والموت بالمرض، وأما في حالات الموت الأخرى، فيكون محرَّمًا لسراية الدم فيه لا بالذات.

## أكل المنخَنِقَةِ حرام

على هذا، فيُحَرَّم أكل المنخنقة والمقتولة بالطرق الأخرى؛ لأنَّ الغذاء النجس يُسَبِّبُ النجاسات التي ذكرتُها آنفًا، أي إنّ الغذاء النجس يولِّدُ الدم النجِسَ، والدم النجس يُولِّد الروح الهوائية النجسة، وهي تفيض النفس الناطقة النجسة أو النفسُ الناطقة تتنجسُ – بعد أن تُفَاضَ – بالروح الهوائية النجسة؛ فتتولد الأفكار النجسة، وتصدر الأعمال النجسة، فيمتلئ العالم نجاسةً وقذارةً.

## الأغذية النجسة تُسَبِّبُ المعتقدات الباطلة

ولِمَ لا يكون الأمر كذلك، فقد يقول المثل السائر عندنا في الهند: النسل يُشْبِهُ الأصل، والثمرة تُشْبِهُ الشجرة. فنجاسة الأرواح تعني أنَّ أصحابَها يتبنَّون المعتقدات الباطلة. ولما كانت الإرادة تتبع في وظيفتها العلمَ والاعتقاد، والأخلاق تتبع في ظهورها الإرادة، يصير نظام العالم كله فوضى: فيحسب صاحب الاعتقاد الخاطئ في الظلام الأسدَ بقرةً فيريد أن يمسحه يبديه شفقةً ورحمةً، أو يحسب البقرة أسدًا؛ فيريد أن يَفِرَّ خوفًا منها. وهذه الإرادة تتبع الخيال

الذي يُسَمَّى الاعتقاد، ثم إنَّ الحب والخوف يتبعان الإرادة الناشئة عن الاعتقاد؛ فتكون عاقبة الاعتقاد الخاطئ أن تصير الأعمال كلها خاطئة. وهكذا إذا اعتقد أحد غير الله إلهًا، فكل ما يريد أن يعمله من الأعمال صادرًا عن حب الله وخوفه كان في غير موضعه، وقس على هذا الأخطاء الأخرى.

## لماذا يُوصَفُ المعتقد الخاطئ بالنجس؟

أما وصف المعتقد الخاطئ بالنجس، فالسبب في ذلك أنَّ الموجودات كلَّها تتفاوت في القداسة والقذارة: فالله عزَّوجلَّ مقدَّسٌ كلَّ القَداسة، والمخلوقات – حسب مراتبها – مُتَلَوِّثَةٌ بالعيوب وأنواع النجاسة والقذارة؛ ولِمَ لا يكون الأمر كذلك؟ فلما وصفنا الله عزَّوجلَّ بالمقدَّس؛ لأنه لا عيب فيه، حيثما توجَد العيوب تُوجد – بقدرها – النجاسة؛ فإن كان غير الله في المعتقد فقذارته تُلَوِّثُ المعتقد. فلما صار المعتقد – الذي كان ينبغي أن يتعلق بالأمور العظيمة – نجسًا لتعلقه بالأمور الحقيرة؛ فالمعتقدات الخاطئة كلها تتلوث بالقذارة؛ لأنَّ كلَّ معتقدٍ خاطئ يُسوِّي بين «الحقيقة»

و «غير الحقيقة» ولا شكَّ أنَّ «الحقيقة» أفضل من «غير الحقيقة»؛ ولا شك أنَّ هذا يُسَبِّبُ القذارة. لا فرق في ذلك إلا أنَّ «الحقيقة اللازمة» أفضل من «غير الحقيقة اللازمة»؛ فالتسوية بين «الحقيقة اللازمة» و«غير الحقيقة»أشدُّ ضررًا من التسوية بين «الحقيقة غير اللازمة» و«غير الحقيقة».

أترك هذا الموضوع جانبًا، فقد تطرَّقَ الحديث إليه عفوًا؛ إنَّما أعني أنَّ الميتة نَجِسةٌ، سواء فارقتها الروح لانقضاء عمرها الطبيعي أو لمرضٍ من الأمراض. والمراد بانقضاء العمر الطبيعي أن تَضْعُفَ قُوى الحيوان وتفتر. على هذا فالميتة التي قد أُخرِجَت روحها بأسلوب من الأساليب – مع صحتها وبقاء عمرها الطبيعي – وسرى فيها الدم، نجسة كذلك. ففي الصورتين الأوليين تكون الميتة محرَّمةً حرمةً ذاتيةً وطارئةً للدم. وفي هذه الصورة تكون محرَّمةً نجسةً لسراية الدم فيها. لذلك فقد وجَبَ إخراج الدم بالذبح لتحليل اللحم.

## الفرق بين الحيوان والنبات

وقد كان إنبات الحبوب والثمار والخضراوات لصالح الإنسان واضحًا بينًا؛ فمن لا يعرف أنَّها لولاها لاستحالت

الحياة الإنسانية أوصَعُبَتْ. وقد سبق أن تناولتُ هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الصفحات الأولى من البحث. وأما خَلْق الحيوانات لصالح الإنسان، فكان أمرًا خفيًا؛ لأنه كما يتمتع الإنسان بالأيدي والأرجل والعيون والآذان وغيرها من القوى والأعضاء الأخرى، كذلك الحيوانات تتمتع بالأعضاء والقوى وتنتفع بها. ثم إنَّ الإنسان كما يستعمل الحبوب والثمار والخضراوات، كذلك الحيوانات تشاركه في استعمالها والانتفاع بها. وأما النبات فلم يكن كذلك. فإنباته لا يقِلُّ عن الإذن باستعماله. وأما الحيوانات فمسَّت فيها الحاجة – ما عدا الخَلْقِ – إلى الإذن بالانتفاع بها. وإلا لكان الذبح الذي هو عبارة عن القتل ظلمًا عظيمًا، ولِمَ لا يكون الأمر كذلك؛ فما نملكه فهو مملوك لنا اسميًّا، فإن كان التصرف في مملوكاتنا بدون إذن منا ظلمًا، فكيف لا يكون التصرف فيما يملكه الله بدون إذن منه ظلمًا؛ لذلك مسَّت الحاجة إلى الإذن عند الذبح.

## لماذا يجب ذكر اسم اللّه عند الذبح؟

ويعلم كل من هبَّ ودبَّ من النَّاسِ أنَّ إذنَ المالك إنما

يُتَصوَّر إذا اعتقد المتصرفُ المالكَ مالكًا، وإذا اعتقد غيره مالكًا لا يُؤْذَنُ له بالتصرف – بحكم غيرة المالك – وإنَّما يُنهى عنه.

على هذا فالعطاء إنَّما يُتَوَقَّعُ إذا أدّى المتصرف حقوقَ المالكية للمالك، ولو أدّى حقوقَ المالكية لغيره، لاستوجب العقاب لا العطاء؛ لذلك فقد وجب إعلان المالكية والإذن عند الذبح نفيًا للشبهة. بناءً على ذلك فقد وجب ذكر اسم الله عند الذبح عند المسلمين وأهل الكتاب. وبالجملة أنَّ ذكر اسم الله عند الذبح يؤيّده العقل كذلك.

## لماذا حُرِّمَ ما أُهِلَّ لغير الله؟

فلما كان الأمر كذلك، فذكرُ اسم غير الله كان – ولا ريب– مَسْخَطَةً له؛ فهذا العطاء – تحليل اللحم – يتبدَّل تحريمًا له، ويُخْشى أن ينال الذابح عقابًا سواه. فجملة القول أنَّ تحليل اللحم نعمة عظيمة، وإنما يُتَصَوَّرُ الإنعام بها إذا اعتقد المتصرفُ اللهَ عزَّوجلَّ مالكَ كلِّ شيءٍ، والحيوان ملكًا له، واستأذنه عند الذبح، وإن اعتقد غير الله عزَّوجل مالكًا، واستأذنه عند الذبح فلا يمكن نيل هذه النعمة.

## السبب الثاني في ذكر اسم اللّه عند الذبح هو محبوبية اللّه عزَّوجلَّ

وهذا السبب كان مُؤَسَّسًا على ملكية الله عزَّوجل ومملوكية الحيوانات. وإذا تناولنا الأمر بوجهة نظر أخرى، وهي محبوبية الله عزَّوجلَّ، فسبب تأثير ذكر اسم الله وعدمه في تحليل اللحم وتحريمه هو أنَّ الله عزَّوجلَّ هو المحبوب الحقيقي أصالةً، كما أسلفتُ الحديث عن هذا الموضوع فيما مرَّ من الصفحات. ولما كان الله عزَّوجل بالذات جامعًا لأسباب المحبوبية وجَبَ على كل ذي حُبٍ أن يُحِبَّ الله عزَّوجل.

## كلُّ حيوانٍ يُحِبُّ اللّه عزَّوجلَّ

هذا وقد أُوْدِعَ الحبُّ قلبَ كل حيوان؛ فالحبُّ يتعلق بالأشياء الجديرة بالحبِّ علاقةَ القوة الباصرة مع المبْصَرات أي الأشياء التي تُرى وتُبْصَر؛ فكما أنَّ كلَّ ذي لون جدير بالإبصار، فكذلك كل جميلٍ وموصوفٍ بالصفات المحمودة جديرٌ بالحب، على هذا فينبغي أن يُحِبَّ كلُّ حيوانٍ اللهَ عزَّوجلَّ.

## كل موجود يُدرِكُ وُجُودَ اللّه عزَّوجل

ولِمَ لا يكون الأمر كذلك؛ فجميع ما في الكون يدرك الله عزَّوجلَّ؛ لأنَّ كل موجود – في ضوء ما تقدَّمَ من البحث – يحظى بالإدراك والشعور، كما أنّه من المعلوم أنَّ كل موجود يدرك – أولَّ ما يدرك – ذاتَه، وإدراك الذات يعني أنَّه كما أنَّ ضوء الشمس عبارة عن منتهي الشعاع، والشعاع انعكاس للشمس، فكذلك لكل مخلوق منتهى للوجود، وذلك الوجود انعكاس لوجود الله عزَّوجلَّ؛ لأنَّ المخلوقات ليست معدومةً محضةً بداهةً، وإلا لما صحّ أن تُسَمَّى بالمخلوقات، وليست موجودةً محضةً، وإلا لما كانت مخلوقات، وإنَّما أصبحت خالقةً؛ لأنَّ الوجود لا يطرأ على العدم، والعدمُ لا يطرأ على الوجود؛ لذلك لا تكون المخلوقات معدومةً محضةً ولا موجودةً محضةً.

نعم! ويمكن أن يُقَال إنه كما أنَّ ضوء الشمس والظلَّ يفصل بينهما خطٌّ، أو أنَّ الأشعة والأرض وظلمتها يفصل بينهما سطحٌ يُسَمَّى بضوء الشمس، كذلك العدم المحض والوجود المحض، أو بعبارةٍ أخرى المعدوم المحض والموجود

المحض تفصل بينهما الممكنات؛ فكما أنَّ الخط والسطح المذكورين نورانيّان من وجهٍ وظلمانيّان من وجهٍ، كما يدل على ذلك اتصالهما بالجانبين؛ كذلك الممكنات يجب أن يُطلقَ عليها أنَّها معدومة من وجه وموجودة من وجه؛ على هذا فقد وجب أن تُسَمَّى الممكنات – من حيث الوجود – منتهَى الوجود المحض أو موجودةً، أي كما أنَّ السطح المتوسط الذي يُسَمَّى – من حيث النور – ضوء الشمس، وهو – من حيث النور – منتهى النور. كذلك الممكنات التي هي – من حيث الوجود – مخلوقات، هي – من حيث الوجود – منتهى الوجود المحض.

فحينئذٍ يكون إدراك حقيقة هذه الممكنات من قبيل الإضافة[1] كضوء الشمس والخط المذكورين، مما يعني أنَّ إدراك ضوء الشمس يتوقف على إدراك الشعاع؛ لأنه لا يمكن تصور السطح إلا بذي السطح، فكذلك إدراك حقيقة الممكنات يتوقف على إدراك الوجود المحض.

فلما كان الأمر كذلك، فالممكنات هي الأخرى تحتاج في إدراك حقيقتها إلى واسطة، فكما أنَّ الإنسان يذهل عن نفسه

(١) الإضافة : هي حالة نسبية متكرِّرة كالأبوَّة والبنوَّة .

عند الإغماء، فكذلك فإن انشغل بهمومه وأعماله عن الله عزَّوجلَّ فذلك أمر ممكن. ولما كان الوجود المحض – الذي تتحقق به الممكنات بشكل مذكور – يتعلق بذات الله عزَّوجلَّ، علاقةَ الأشعة – التي هي النور المحض – بذات الشمس، كذلك الممكنات تحتاج في إدراك حقيقتها إلى إدراك الله عزَّوجلَّ. ومن منا لا يدرك نفسه؟ بل كلٌّ يُدْرِك نفسَه أولاً وقبلَ كل شيء.

## حبُّ الذات يستلزم حبَّ اللّه عزَّوجلَّ

فلما كان السبب في لزوم الإدراك هو أنَّ الممكنات يتوقف إدراك حقيقتها على إدراك حقيقة الله عزَّوجل، فحبُّ كل شيء نفسَه يستلزم حبَّ الله عزَّوجل، ومن لا يُحِبُّ نفسه؟! إذًا فالواقعية ودقة الملاحظة تقتضي أن يُعْتقد هذا عن كل شيءٍ؛ لأنَّه قد سبق أن ذكرت أنَّ كل شيء يحظى بالإدراك والشعور؛ فإن لم يُعْتَقَد هذا، فعلى الأقل يجب الاعتراف بأنَّ الحيوانات قد رُكِّبَ حبُّ الله عزَّوجل في قلوبها.

## كل شيء يعتقد مالكية اللّه عزَّوجل ومملوكية نفسه

ولما كان أساسُ مالكية الله عزَّوجل ومملوكية

المخلوقات على هذا «التوقف» الذي تتحقق به حقيقة المخلوقات بالنسبة إلى الله، فلا بُدَّ أن تُرَكَّب عقيدة مالكية الله ومملوكية نفسه في أعماق كل شيء.

وتفسير هذه الأحجيَّة هو أنَّ القبض من لوازم المِلك، وليس نوع من أنواع القبض أكبر من أن تتوقف حقيقةٌ على حقيقة أخرى، - كما ثبت ذلك في الصفحات الماضية بالقدر اللازم - فلما عُلِمَ هذا الأمران: أنَّ حبَّ الله عزَّوجل قد رُكِّبَ في قلب كل إنسان وحيوان، وأنَّ عقيدة مالكية الله ومملوكية نفسه ركِّبَتْ في قلب كل حيوان، فالعقل يقتضي أن يجب ذكر اسم الله عزَّوجل عند الذبح فكما تكون تذكرة القطار بمثابة الإذن بركوب القطار، وتنفي شبهة عدم أداء الأجرة، يكون ذكر اسم الله بمثابة الإذن بذبحه، وينفي شبهة الظلم.

## خلاصة البحث

جملة القول أنَّ الحيوانات والنِّعم بذاتها تدل على أنَّها لا تبالي بمنافعها ومضارها، وإنَّما هي خُلِقتُ للإنسان، ليأكلها ويستعملها حِلاًّ بِلاًّ. ثم إنَّ الحيوانات يتمتع بالأيدي

والأرجل والعيون والآذان، وتأكل وتشرب، وتصح وتمرض كالإنسان؛ مما يدلُّ العاقلَ على أنَّ الإنسان خُلِقَ جلبًا للمنافع ودفعًا للمضار عن نفسه، سواء كانت المنافع دينيةً أو دنيوية؛ فكذلك الحيوانات تبدو أنها خُلِقَتْ جلبًا لمنافعها ودفعًا لمضارها، فهى ليست كالنباتات والجمادات خاليةً من الأيدي والأرجل والشعور والإدراك؛ فيؤذنَ باستعمالها دونما روية وتفكير، اللهُمَّ إلا أنه يُرْجَى الإذن باستعمالها نظرًا إلى فضل الإنسان وكرامته، إلا أنَّ هذا القدر من الإذن المرجوّ لا يسمح بالاجتراء عليها والتصرف فيها؛ فمست الحاجة - بالإضافة إلى فضل الإنسان وأهلية الحيوانات لتحقيق مصالحه - إلى إذن صريح من الله عزَّوجل ومراعاة إذنه.

ومراعاة الإذن هذه تعني أن يُقْبلَ الإنسان على الذبح بعد ما يسمع إذن الله عزَّوجلَّ؛ فإن ذبح خاليَ الذهن، لا يكون ذبحه وتناول لحمه بإذن الله. فلما تقرر ذلك وجب إعلان إذن الله عزَّوجلَّ، حتى لا توهِمَ حالةُ الذبح إلى أنه لا يحتاج إلى إذن الله، أو يجترئ على التصرف فيما يملكه الله

عزَّوجل كما يشاء؛ فيُوْصَفَ ظالمًا ومستخفًا بالله عزَّوجل. ثم إنَّ هذا الإعلان له فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أن الحيوانات إذا سمعت اسم الله عزَّوجلَّ سَهُلَ عليها الفداء بنفوسها لما أُودِعَ قلوبَها اعتقادُ مالكية الله ومملوكية نفوسها.

وعصارة الكلام أنَّ الله عزَّوجلَّ مالك كل شيء، وأنَّ الحيوانات مِلْكٌ له؛ فإن توقَّفَ تحليلُها على ذكر اسم الله عند الذبح، وحُرّمَ مالم يُذكر اسم الله عليه، كان حقًا؛ لإنَّ المالك لايكره أن يُتَصرَّف في مملوكاته بإذنه. وأما التصرف من غير إذن منه فلن يحتمل أبدًا.

وعلاوةً على الإذن إن نَسَبَ الذابح الحيوان إلى غير الله أو ذبحه باسم غيره استحقَّ العقاب فضلاً عن احتمال فعلته، وحُرِم من لحمه.

وهذا هو السبب الذي يجعل أهل الإسلام يحرِّمون الحيوان الذي أُهِلَّ لغير الله، أو ذُبِحَ لغير الله باسمه.

## يُذْكَرُ اسم اللّه عزَّوجل عند الذبح بناءً على محبوبيته

وقد عُلِمَ - مما تقدَّم - حاجةُ ذكر اسم الله عزَّوجَلَّ عند الذبح، وقُبْحُ ذكر اسم غير الله. وأما ذكر اسم الله بناءً على

محبوبيته، فأقول: إنَّ الفداء بالنفس في الذبح إن كان من ذي روحٍ فهو ليس إلا للمحبوب الحقيقي، فإن كان وليُّه يفدي به كالأب يفدي بابنه أو المالك يفدي بحيوانه المُقْتَنَى، كان هذا الفداء للمحبوب الحقيقي كذلك، لأنه لايفدي أحد بنفسه ولا بابنه ولا بحيوانه سُدًى دونما جدوى. وأمَّا الفداء بالنفس لغير محبوبه فهيهات أن يكون ذلك أبدًا، وقد ثَبَتَ من قبلُ أنَّ الله عزَّوجلَّ محبوب لجميع الناس والحيوانات، وليس هذا الحبُّ إلا بما يليق بمحبوبية الله عزَّوجل، أي كما أنَّ أسباب المحبوبية في الله كلها ذاتية وحقيقية، وفي غير الله مستعارة منه، كذلك حُبُّ الإنسان والحيوان اللهَ ذاتي وحقيقي، لا طارئ ولأنَّ حبَّ الذات يتوقف على حبِّ الله كما أسلفتُ آنفًا، وحبُّ الذات ليس كحبِّه غيرَه من الناس؛ فلا يزول ولا ينتهي؛ فلا يستحق الفداء بالنفس إلا الله، فإن كان الأمر كذلك فمشاركةُ الحيوانات الإنسانَ في معظم الأمور – التي تقدَّم ذكرها من قبلُ – تتطلبُ ألا يكون الفداء بنفوسها لأجل الحبِّ إلا لله عزَّوجلَّ، إذًا فيجب إعلان الإذن المذكور أعلاه، حتى ترتفع شبهة الاستخفاف

بالله، ويَسْهُلَ على الحيوانات الفداءُ بنفوسها لأجل حبِّ الله المودَعِ قلبَ كل إنسان وحيوان؛ فإن كان الفداء عفوًا دونما جدوى فلا يَسْهُل عليها الفداء، وإنما تضيع نفوسها سدًى؛ لأنَّ هذا الفداء لا يؤثقُ عُرى الحبِّ، ولا يفي بآدابه وتقاليده؛ فلا يُعَدُّ بسلوكه هذا مع المحبوب مُحِبًّا وفيًا.

وأما الفداء لغير الله فمعناه أنه يعتقد غير الله محبوبًا حقيقيًا له، وبالتالي خالقًا له؛ لأنَّ حبَّ الله يتوقف على ما بين المخلوقات والوجود المحض من العلاقة، وهذا التوقف هو أساس الخالقية؛ على هذا إن ذُبِحَ لغير الله أو لأجل محبوبية غير الله، وذكر اسم الله فالذبح يدُلُّ على تنكُّره لله وتبرّئه منه؛ فاستحق الذابح العقاب.

وذلك أنَّه قد اعتقد لله كفؤًا؛ ففي حالة مراعاة المالكية تكون الثورة على الله بالتسوية بين الله وغيره في المالكية، وفي حالة مراعاة المحبوبية تكون التسوية بين الله وغيره في المحبوبية. وهذه التسوية – التسوية بين الله وغيره في المحبوبية – أدعى للطاعة من تلك التسوية، ومن لا يعرف أنَّ المحِبَّ أطوع لحبيبه من العبد لسيده؟ إذًا فالذبيحة

المذكور عليها اسم غير الله لأجل الحب، أي تمَّت تضحيتها لغير الله، لا تحِلُّ أبدًا؛ لأنَّ الذبيحة التي ذُبِحَتْ مراعاةً لمالكية الله بإذنه هي كلها تكون للذابح، كذلك الذبيحة التي ذُبِحَتْ حبًّا لله هي في الحقيقة لله عزَّوجل.

## لماذا لا يجوز بيع وشراء لحوم الأضاحي وجلودها؟

على هذا فلا يجوز في الإسلام بيعُ وشراءُ لحوم الأضاحي وجلودها؛ لأنَّ الإذن بتناول اللحم في الأضاحي بمثابة ضيافة الله لمحبِّيه. وأما الذبائح الأخرى فيجوز بيع وشراء لحومها وجلودها؛ لأنَّه كالإذن بالتصرف فيما يُعطى العبيدُ والمساكين. ففي هذه الصورة تمليك للحيوانات كلها، بينما في الصورة الأولى هي – لحوم الأضاحي – بمثابة طعام الضيافة، فلا يباح لهم إلا أن يتناولوا لحومها ويستعملوا جلودها.

## الحرمة المتصلة بالحيوانات على أربعة أقسام

وقد تلخص مما ذُكِرَ أن الحرمة المتصلة بالحيوانات على أربعة أقسام: الأول: حرمة الميتة. والثاني: حرمة الدم. والثالث: حرمة الحيوانات المحرمة لسوء طباعها. والرابع:

ما أُهِلَّ لغير الله، أو ما لم يذكر اسم الله عليه. وأما ما عدا هذه الحيوانات فتحل لحومها. ثم إنه إن ذبح بإذن الله مراعاةً لمالكيته، يَحِلُّ اللحم فحسب، ولا ينال الثواب، وإن ذبح حُبًّا لله كما في الأضاحي، يُفتي العقل السليم بأنَّ الله يُثيب محبيه على حبِّهم هذا. وقد تبيَّنَ لأولي الألباب فضلُ الأضاحي وقيمتها بهذا البحث.

* * *

# الفهرس


تقـــديم..... ٥
المبحث الأول ..... ١١
المبحث الثاني التوحيد..... ١٣
المبحث الثالث الرسالة..... ١٤
مدار النبوة أو الرسالة ..... ١٥
المبحث الرابع حلة وحرمة اللحم..... ١٦
كلمة المشرف ..... ٢٢
كلمة المترجم ..... ٢٤
ترجمة المؤلف ..... ٢٧
ولادته ونسبه ..... ٢٧
تعليمه ودراسته..... ٢٨
مواهبه وأخلاقه ..... ٣٠
أعماله ونشاطاته..... ٣١
جهاده ضد الإنجليز ..... ٣٢
تأسيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند ..... ٣٣

مناظراته مع القساوسة و علماء الهندوس ..... ٣٤
وفاته ..... ٣٩
مؤلفاته ..... ٣٩
تلاميذه ..... ٤٠
مقدمة ..... ٤٣
الغرض من وراء خلقِ الإنسان ..... ٤٤
لن يمكن أن يكون الإنسان مخلوقًا عبثًا ..... ٤٦
لا يخلو فعلٌ من أفعال الله من حكمة ..... ٤٦
الإنسان مخلوق ..... ٤٧
الإنسان العاصي ذو حظ سيء ..... ٤٨
طاعة الله إنما ينتفع بها الإنسان ولا ينتفع بها الله ..... ٤٩
من عَرَفَ نَفْسَه فقدْ عرفَ ربَّه ..... ٤٩
اقتضاء طبيعبي ..... ٥٠
هناك أمران يتسببان في الضلالة ..... ٥١
الإسلامُ دِينُ النجاةِ ..... ٥٢
ركنان أساسيان للإسلام ..... ٥٣
الركن الأول: التوحيد ..... ٥٤

وجودُه سُبحانَه وتَعالى ..... ٥٤
لن ينفصل الوجود عن ذاته تعالى ..... ٥٥
شبهة والرد عليها ..... ٥٦
وحدانيّة الله تعالى ..... ٥٧
الوجودُ وبساطتُه..... ٥٨
الدليل الأول على وحدانية الله ..... ٥٩
الدليل الثاني على الوحدانية ..... ٦٠
يستحيل أن تكون علتان لمعلول واحد ..... ٦١
الوجود غير محدود وغير متناهٍ بكل نوع ..... ٦٢
الله ليس له أب ولا ابن ولا أخ ..... ٦٣
من المجاز إطلاق كلمة الأب على الله تعالى..... ٦٤
وإطلاق كلمة ابن الله على العبد ..... ٦٤
لا تُستخدم الكلماتُ المُورِّطةُ في الخطأ..... ٦٥
الدليل الثاني للرد على البُنُوَّة ..... ٦٦
الله عزّوجلَّ منزَّهٌ عن كل عيب، ..... ٦٧
ومستجمع لصفات الكمال: ..... ٦٧
الجمادات والنباتات تحظى بالشعور والإدراك..... ٦٧

الإنسان المحتاجُ كلَّ الاحتياج ..... ٦٨
يستحيل أن يكون إلهًا أو ابنه: ..... ٦٨
يستحيل أن يكون عيسى عليه السلام إلهًا أو ابنه ..... ٧٠
عقيدة التثليث والردُّ عليها ..... ٧١
مكانة العقيدة في الدين ..... ٧١
لا يُعتَمدُ على دليل عند بداهة العقل ..... ٧٢
فقرة التثليث مدسوسة في الإنجيل ..... ٧٣
المسيحيون الصادقون ..... ٧٤
أفعالُ الله وصفاته ..... ٧٥
أفعال الله تَصْدُرعنه عن اختيارٍ وإرادةٍ لاعن قسرٍواضطرارٍ ٧٥
أفعالُ الله ليست قديمةً كصفاته ..... ٧٦
القدرُ وإثباته ..... ٧٦
الرَّدُ على كون أفعال الله اضطراريّة ..... ٧٩
العالمُ بجميع أجزائه حادث فانٍ ..... ٨٠
من يخلق أفعال العباد؟ ..... ٨١
من يملك النفع والضر للمخلوقات؟ ..... ٨٢
المحبوب الحقيقي هو الله عزّوجلّ ..... ٨٣

فلسفة العبادات في الإسلام ..... ٨٤
من يستحق العبادة والطاعة؟ ..... ٨٤
الإشراك بالله لا يُقِرُّه العقل ..... ٨٤
طاعةُ الله عزّوجلّ وطاعة الأنبياء ..... ٨٥
الفرق بين العبادة والطاعة ..... ٨٥
مظهر العبادة عبادة ..... ٨٦
الإيمان يستلزم العبادات ..... ٨٨
فلسفة الصلاة وأعمالها ..... ٨٨
استقبال القبلة ..... ٨٩
القيام في الصلاة واضعًا إحدى يديه على الأخرى ..... ٨٩
الركوع ..... ٨٩
السجود ..... ٨٩
لا يجوز أداء أعمال الصَّلاة لغير الله عزَّوجلّ ..... ٩٠
فلسفة الزكاة ..... ٩٠
فلسفة الصوم والحج ..... ٩٢
الصلاةُ والزكاةُ والصومُ والحج كلها تترابط فيما بينها ... ٩٣
مقتضيات الحب في الله، والبغض في الله ..... ٩٤

الإشراك بالله في العبادة ..... ٩٥
الركن الثاني: النُّبُوَّة ..... ٩٦
النُبوَّة والحاجة إليها ..... ٩٦
عصمة الأنبياء ..... ٩٨
شفاعة الأنبياء ..... ٩٨
الردُّ على عقيدة التكفير ..... ٩٩
النبوة يجب أن يتوافر في صاحبها الصفات الثلاث ..... ١٠٠
للأنبياء أَصَالة في مادَّة الحياة والعقل ..... ١٠٣
والفهم والأخلاق ولأممهم تبعية فيها ..... ١٠٣
المعجزة ثمرة النبوّة وليست أساسها ..... ١٠٤
الإسلام يطالب أتباعه بالإيمان ..... ١٠٥
بجميع الأنبياء والمرسلين ..... ١٠٥
محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين ..... ١٠٦
المعجزةُ العلمية تَفْضُلُ المعجزةَ العملية ..... ١٠٧
التعريف بالمعجزات العلمية والعملية ..... ١٠٨
تَتَفَاضَلُ العلوم بحسب تَفَاضُل معلوماتها ..... ١٠٨
مزية محمد ﷺ في باب النبوءات ..... ١٠٩

مزيته ﷺ في الأخلاق ..... ١١٣
القرآن معجزة من حيث احتواؤه على علوم لا تُحصَى .... ١١٣
القرآن معجزة من حيث اشتماله على الفصاحة والبلاغة .. ١١٤
القرآن كلام الله، والتوراة والإنجيل كتابا الله ..... ١١٥
صاحب المعجزة العلمية أفضل من صاحب المعجزة العملية ١١٦
ختم النبوّة ..... ١١٧
يجب على أتباع الديانات الإيمانُ بمحمد ﷺ ..... ١١٧
نبوءة عيسى عليه السلام بشأن محمد ﷺ ..... ١١٨
معنى نسخ الأحكام ..... ١١٩
في النسخ اختلاف لفظي ..... ١٢٠
فضل محمد ﷺ على موسى كليم الله ..... ١٢٠
معنى النبوءة الواردة في التوراة..... ١٢١
فضل محمد ﷺ على عيسى كلمة الله ..... ١٢٣
الكائنات كلها كلمات الله ..... ١٢٣
صفة الكلام وإحياء الموتى ..... ١٢٤
الموازنة بين معجزات محمد ﷺ وبين معجزات غيره من الأنبياء
والمرسلين ..... ١٢٦

الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام في إحياء الموتى ..... ١٢٦
الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في إحياء الموتى..... ١٢٨
فضل محمد ﷺ على الأنبياء الآخرين في المعجزات العملية..... ١٢٩
الموازنة بين محمد ﷺ وموسى عليه السلام في معجزة تكثير الماء ..... ١٣٠
الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في معجزة تكثير الطعام..... ١٣٢
الموازنة بين محمد ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام في شفاء المرضى ..... ١٣٤
الموازنة بين معجزة انشقاق القمر ومعجزة سكون الشمس وعودتها ..... ١٣٥
شق القمر خارق للطبيعة، وسكون الشمس ليس كذلك .. ١٣٦
لا بُدَّ من محرِّكٍ لكل حركةٍ طبيعيّة أو قسرية ..... ١٣٧
إجابة الدعوة لا تَدُلُّ على الفضل ..... ١٣٩

الشمسُ تتحرك بإرادتها ..... ١٤٠
الخرق والالتئام في الأفلاك ..... ١٤٠
الموازنة بين معجزة انشقاق القمر وبإشارة سيدنا محمد ﷺ
ولين الحديد في يد سيدنا داود عليه السلام ..... ١٤١
تأثير صحبة الرسول ﷺ ..... ١٤١
قصة أخرى لتأثير صحبة الرسول ﷺ ..... ١٤٢
المعجزات التي جاء ذكرها في القرآن، قطعية الثبوت..... ١٤٣
الأحاديث النبوية تُساوي التوراة والإنجيل ..... ١٤٤
أهل الكتاب لا يُنْصِفُون ..... ١٤٥
المعجزات لا يجب أن يَرِدَ ذكرها في القرآن ..... ١٤٥
عماد صحة المعجزات ..... ١٤٦
لماذا لم يُسَجَّلْ انشقاقُ القمر في كتب التاريخ؟ ..... ١٤٧
فلسفة اللُّحومِ المباحةِ والمحرَّمةِ في الإسلام ..... ١٥٠
لماذا أُحِلَّ اللحم؟ ..... ١٥٠
استحلال اللحم ليس بظلم ..... ١٥٠
أكل اللحم يجدر بالإنسان والحيوان كليهما ..... ١٥١
أكل اللحم تقتضيه طبيعة الإنسان ..... ١٥٢

الفرق بين اللحوم المباحة والمحرَّمة ..... ١٥٣
دم كل حيوانٍ جدير بالتحريم ..... ١٥٤
الدم فَضْلة كالبراز ..... ١٥٤
لماذا لم يجعل المخرج للدم كمخرج البول والبراز؟ ..... ١٥٤
الدم يُشْبِهُ البول والبراز ..... ١٥٥
لماذا لم يُجْعَل للدم مخرج؟ ..... ١٥٧
الردُّ على شُبْهةٍ ..... ١٥٨
كل ميتة نجسة ومحرَّمة عقلاً ..... ١٥٩
هل الروح الهوائية جوهر الغذاء أم من قبيل استحالته؟ .. ١٦٠
لماذا يجب قطع الحلق في الذبح؟..... ١٦٣
تحريم الميتة لأسباب الموت الأخرى سوى الدم ..... ١٦٣
أكل المنخَنِقَةِ حرام ..... ١٦٦
الأغذية النجسة تُسَبِّبُ المعتقدات الباطلة ..... ١٦٦
لماذا يُوصَفُ المعتقد الخاطئ بالنجس؟ ..... ١٦٧
الفرق بين الحيوان والنبات ..... ١٦٨
لماذا يجب ذكر اسم الله عند الذبح؟ ..... ١٦٩
لماذا حُرِّمَ ما أُهِلَّ لغير الله؟ ..... ١٧٠

السبب الثاني في ذكر اسم الله عند الذبح ..... ١٧١
هو محبوبية الله عزَّوجلَّ ..... ١٧١
كلُّ حيوانٍ يُحِبُّ اللهّ عزَّوجلَّ ..... ١٧١
كل موجود يُدرِكُ وُجُودَ الله عزَّوجل ..... ١٧٢
حبُّ الذات يستلزم حبَّ الله عزَّوجلَّ ..... ١٧٤
كل شيء يعتقد مالكية الله عزَّوجل ومملوكية نفسه ..... ١٧٤
خلاصة البحث ..... ١٧٥
يُذْكَرُ اسم الله عزَّوجل عند الذبح بناءً على محبوبيته ..... ١٧٧
لماذا لا يجوز بيع وشراء لحوم الأضاحي وجلودها؟ ..... ١٨٠
الحرمة المتصلة بالحيوانات على أربعة أقسام ..... ١٨٠
الفهرس ..... ١٨٢

❊❊❊